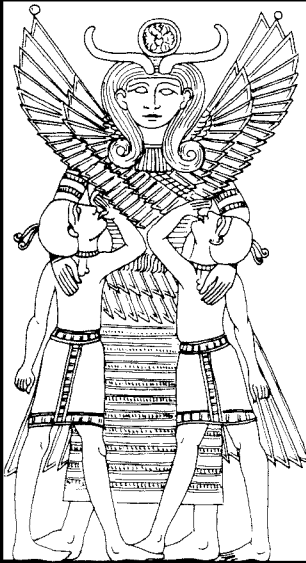


شارل قيرولو

اساطير يابل وكنعان

تعريب
ماجد خير بك



𐤀𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁



𐤀𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁
𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁 𐤏𐤁𐤏𐤁

أساطير بابل وكنعان

أساطير بابل وكنعان

تأليف

شارل فيرولو

العضو في مؤسسة الشرق القديم المصور

تعرّب

ماجد خيرت بك

مدرس الفرنسية في جبهة جبلية
والعربية في المدارس الخاصة سابقاً

حقوق النشر محفوظة

٢٠٠٠ / ٢ / ١٩٩٠

الفلاف تصميم الفنان علي عثمان

تدقيق ومراجعة

هاني الخيري



* مقدمة الكتاب *

بقلم سعادة السفير اليمني
الأستاذ أحمد المضواحي

الأساطير من خيالات البشر ومن ابداعاتهم وبدعهم أو من تخرصاتهم واعاجيبهم وقد أوحى بها إليهم الرهبة حيناً والحيرة تارة كما أن الفراغ وحب الاستطلاع والحنين لمعرفة المغيبات قد أسهمت بدورها إلى حد كبير في الجري والبحث عن معلوم وعن خالق عجزت المفاهيم والأفكار عن إدراك كنهه (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) فتراجعت التخرصات خاسرة عند بعض الأقوام إلى نحت التماثيل واختلاق الأساطير، ولقد تعددت تلكم التصورات والأساطير وتنوعت تبعاً للأزمان والأقوام والأماكن والمفاهيم، وللناس فيما يجهلون مذاهب رغم الدوران في فلك واحد: (النشوء أو أصل الوجود، والمعبود، والمأل والمصير إلخ...) أو الله، والكون، والإنسان أو ما قبل الحياة وما بعد الموت. غافلين أو متغافلين عن معنى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

وقد خلّدت الملاحم والرسوم والنقوش والآثار والكتابات معتقدات وطقوس وآلهة ابتدعوها وخلعوا الأسماء عليها بدون سند أو حجة إنما من الحدس والأوهام لامن الوحي والإلهام.

وقد وقف بهم التقصي والبحث عند الرسم والنحت لما تصورتته قدراتهم الذهنية فبات الفهم انحرافاً والخراج عقيماً والمخلوق خالقاً سواء كان ماخضته الأيدي تمثالاً حجرياً أو صلصالاً فخارياً أو حائطاً فسيفسائياً أو ماتصورته المفاهيم خليطاً عددياً من الأرباب منسوباً للشموس والأقمار أو ظواهر الطبيعة المختلفة، وكذلك التصورات المعبودة المغلوطة بالنسبة لبعض بني الإنسان أو لبعض المخلوقات الحيوانية كالطيور المحلقة والحيوانات المائية والبرية سابحة أو ماشية أو زاحفة وليس الأمر مغايراً ولا متباعداً في الأصنام والتماثيل عما جاء في الملاحم أو

الأقوال أو الأمثال أو القصص أو التراث الشعبي شعراً ونثراً جميعها لابعضها بقيت في أماكنها باهتة خرساء عقيمة، لكنها مآثر شاهدة على انقراض أهلها أو أصحابها بل هي أدلة ناطقة على عجز الأمم والأقوام الذين ابتدعوها لقصور مداركهم عن فهم معنى الحقيقة الأزلية الباقية: (الواحد الصمد) (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

وهكذا كان الحال اسطورياً وتيهياً في الخيال، وان حصل تماثل في التماثيل أو تشابه في الأقوال سواء لدى البابليين أو الكلدانيين أو لدى الآشوريين أو الكنعانيين، أو عند الفراعنة والفينيقيين أو في صفوف البوذيين أو لدى الرومان والاعريقين وحتى عند الاسرائيليين في زمن التيه، وفي مرحلة عبادة (...) وفي عهود السبي رغم توراتهم المزعومة وتلمودهم الموهوم فكل تلك الأسفار التي دونوها في سجون بابل وفي حالات من الاضطهاد والحقد وروح الانتقام أساطير وأباطيل (ولولا كلمة سبقت من ربك لفضي بينهم فيما فيه يختلفون) ولايختلف الأمر بالنسبة لشرعة السيد المسيح بعد صلبيه، فقد تخطى الخيال عند الأتباع حدود المنقول من كلامه عليه السلام (ياإلهي لماذا تخليت عني) إذ صنفه القوم إلهاً وجعلوه ثالث ثلاثة كما تخطى خيالهم أيضاً حدود المعقول فكان حديثهم عن قيامة المسيح بعد صلبيه وبعد دفنه.

وهكذا وعلى ذلك المنوال طغت أساطير البشر ولم يتخلوا عن النزعات الوثنية حتى بعد ظهور رسالات التوحيد أو بعد الاعتناق لها.

لقد عهد إلي الناشر بوضع مقدمة لكتاب معرب من اللغة الفرنسية يتحدث عن أساطير أزمنة شبه وثنية مشرقية المحتوى بابلية الجذور كلدانية المولد اسطورية الإبداع، استشرافية النقل ساذجة الرواية.

وان بطلاً مثل جلجامش أفضل حيلة عشتار قد خدعته حية فانترعت منه سر الخلود الإلهي حين سلبته نبتة الحياة التي خاطر من أجلها بعبور الجبل والنهر والغوص في البحر العميق، فأصبحت الحية المحتالة والأفعى الماكرة تغير جلودها كل عام كي تؤمن لنفسها شباباً متجدداً كما تقول الحكاية أو الأسطورة.

وحضارة وادي الرافدين تذكرونا بالعديد من الأساطير والحقائق معاً فهي مهد ألف ليلة وليلة كما ان كليلة ودمنة من مضاربها وخمريات أبي نواس من مشاربها، وملحمة كربلاء من مآثرها، ومقبرة رابع الخلفاء وعظيم الشهداء في جنباتها، وهكذا تختلط الحقائق والأساطير في خضم تاريخ حافل بالفضائل والردائل، والانتصارات والهزائم في هذا الوادي القديم والمتجدد.

ومن مفاخر خصوبة هذا الوادي الشريف الرضي وأبو الطيب المتنبي، ومن أمجاد تاريخه هارون الرشيد ومحمد المعتصم صاحب عمورية.
ومن فطنة قارئ هذه المقدمة التمس العذر واتقدم نحوه بالاعتذار لأن الشيء بالشيء يذكر، والأساطير تذكرنا أحياناً ببعض الحقائق لا بها جميعها، فالكتاب في محتواه يتحدث عن أساطير حقبة من التاريخ في بقعة من الأرض تُعرف اليوم بالهلال الخصيب، سكانها أصولهم واحدة وجذورهم في جنوب الجزيرة العربية موجودة، وسكان اليوم هم أحفاد الأمس تواجههم أخطار وتكالب عليهم أمم وتهدهم عصابات وتكبلهم أساطير والنائمون بحاجة إلى اجراس توقظهم، ولاسيما في مرحلة الذهول والغفول والتمزق.

وإنني أقدر للناشر ثقته بي عندما اختارني لوضع هذه المقدمة لكتاب عزبه كاتب وشاعر وأديب وأستاذ جليل هو المرجوم ماجد خيربك، فلا ريب بأن قريحة المعرب الوقادة ومعرفته العميقة باللغة الفرنسية قد أجادت وأتقنت في نقله إلى لغة الضاد بأسلوب شيق ممتع سلس مبسّط مع مراعاة الجودة والاتقان والأمر ليس بغريب بالنسبة للأستاذ ماجد خيربك فهو مترجم كتاب شخصية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مؤلف كتاب اللغة العربية جذورها انتشارها - تأثيرها في الشرق والغرب، كما وأن له ديوان شعر أسماه (عبر عبر وعبرات) ولماجد خيربك كتاب آخر مترجم عن الأراميين وله أيضاً كتاب عن تاريخ جبلة، وجبلة هذه هي المدينة السورية التي تصافح وتلامس البحر الأبيض المتوسط، وليست مدينة جبلة التي تعانق هضاب وجبال اليمن في اللواء الأخضر بمحافظة إب والتي لم تحظ بعد بماجد آخر يتحدث عن أمجادها.

جزى الله ماجد خيربك عن وطنه وأمنه وقومه ماضياً وحاضراً خير الجزاء وشكراً للناشر والمقارئ وللماضي المجيد أما الحاضر فلا....

دمشق في ١٥ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ الموافق ١٢/١٢/١٩٨٩

أحمد بن أحمد بن علي المضواحي



مقدمة المعرب

بعد أن أطلع أحد الأصدقاء على « كتاب الأراميين » الذي عرّثته طلب مني بالتحاح أن أشرع في تعريب « أساطير بابل وكنعان » ففقت بالأمر مع علمي بوعورة الطريق . وقد كلفني ذلك جهداً كبيراً . ولا سيما في تعليقي على أسماء الشخصيات الواردة وإيضاحها حتى لا يرى القارئ نفسه في متاهة وحتى يُلِمَّ بجميع الخيوط .

يرى القارئ الكريم في مطالعته هذا الكتاب المدى الذي توصل إليه أسلافنا في فهم الكون والكائنات ويتحسس خيالهم الخصب ويتلمس أفكارهم الواسعة بصورة جلية . وحاولت جهدي أن تكون عبارتي واضحة مستساغة فلا لبس ولا غموض ولا شطط . كما حاولت أيضاً أن لا أخرج من دائرة المؤلف .

فإذا ما رأى قارئى بعض المآخذ فليعذر . وله الشكر

ماجد خير بك

كانون أول ١٩٧٦

مقدمة المؤلف

كما نعرف . إن كتب تاريخ العالم كثيرة اليوم وفي كل منها يحتل الشرق القديم أو الشرق التقليدي المكان الذي يخصه .

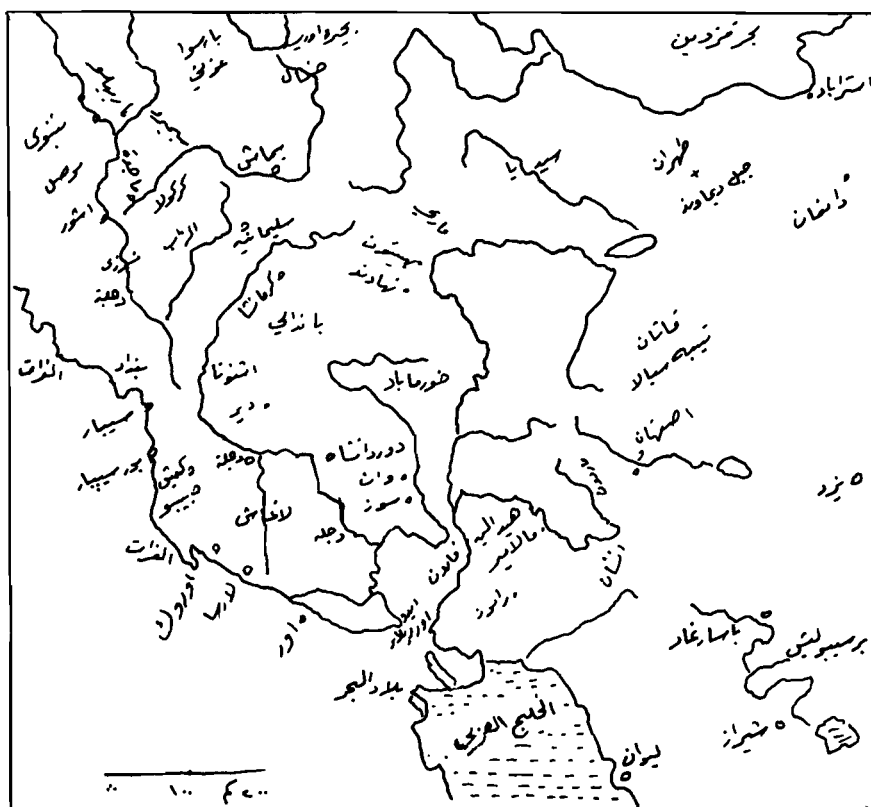
ولكن في هذا المجال - أكثر من غيره من المجالات - تكثر التعديلات المستمرة نظراً للاكتشافات العديدة . وقد حان الوقت لوضع كتاب عن الشرق القديم ؛ ولا يستطيع كاتب بمفرده أن يعالج هذا الموضوع رغم جدارته ووفرة طاقته إلا بمشاركة اختصاصيين معتبرين ولاسيما في كتابة تاريخ شعوب مختلفة كالحثيين والآشوريين وغيرهما . . .

في مؤلف مفهوم تتابع الفصول وفقاً لترتيب تاريخي منذ عصر السومريين حتى الفتح الروماني . ولكن مصاعب الترتيب العملي التي يصطدم بها الكاتب لتحقيق هذا المشروع شاقّة جداً كما وقع لنا . فعولنا أن نعتمد على سلسلة من الدراسات المتعلقة بنقطة واحدة في التاريخ . فقدمت كل واحدة من هذه الدراسات الموجهة والمحددة حالة - في الأبحاث الحاضرة - ذات فائدة جليّة . فالأحداث الناتجة من التنقيب جلبت لنا معرفة واسعة ولا سيما عن الذين اهتموا بأصول الحضارات .

وليس القصد من العنوان الذي توجنا به هذا الكتاب : « أساطير بابل وكنعان » وضع كتاب مختصر عن الميثولوجيتين البابلية والكنعانية بل تقديم لمحة بسيطة عما هو مهم في تلك الميثولوجيتين المختلفتين عن بعضهما . وهذا مما يبيح لنا أن نقدم ذات يوم تفاصيل أكثر وبصورة مستقلة في هذه المجموعة .

شارل فيروللو

الأساطير البابلية



خريطة ميزوبتامية و ایران

الأساطير البابيلونية (البابلية)

الأصول

لم تكن أساطير «كلدة» القديمة - أو بالأحرى كما يقال اليوم « أساطير بابليون » - معروفةً منذ زمن طويل إلا من بعض نبذٍ من كتاب ألف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد ، ومؤلفه بابليّ أو كلديّ اسمه « بيروز » وحفظ هذه النبذ اسقفُ قيسارية الشهير « ايزيب » Eusébe الذي عاش بعد ستائة عام من تأليف الكتاب .

ولم يحتفظ هذا الكاهن بصفحات من كتاب بيروز إلا لغايةٍ في نفسه ، وذلك ليقارن بين ما تورد الروايات المسيحية وبين ما تورد الروايات الوثنية عن أصل العالم والانسان والحضارة ، وليقدم البرهان بأن روايات الوثنيين تقليد طائش وأخرق للروايات المسيحية .

أما الآن ، بفضل النقوش المسامرية التي جمعت بالآلاف وبمئات الآلاف من « كلده » ومن « اشوريا » فإننا نعلم الكثير عما كانوا يقومون به من قبل ، وليس عن نصوصٍ تناقلتها الأيدي فأصابتها المسخ والتحوير بل عن وثائق أصلية بعيدة عن التغيير ، وإن كانت مبتورة أحياناً .

والروايات والأساطير التي ظهرت لنا من قراءة الخط المسامري تختلف كثيراً عما جاءنا من « بيروز » وتختلف فيما بينها لابل وتتضارب . وهذا الاختلاف أو التضارب يعود إلى ما اكتشف في « بابيلونيا » (بلاد بابل) وبين ما اكتشف في وسط بلاد ما بين النهرين أو في شماليه وبين ما ظهر في « أشوريا » . ويعود

أيضاً إلى ما عُثِر عليه في الألف الثالثة وما عثر عليه في الألف الثانية أو الأولى قبل المسيح .

وفي كل اكتشاف جديد - والاكتشافات تتابع دون توقف - يبرز لنا مدى ما توصل إليه وهم المؤرخين القدامى الذين كانوا يتقبلون الأمور دون تمحيص وتنقيب ويصرّحون بأن الشرق القديم ظلّ جامداً^(١) خلال ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة - فضلاً عما كان قبل تدوين التاريخ وقبل التاريخ - ظلّ جامداً بمعتقداته ومؤسسته وفنونه .

وهذا يشكل خطأ فادحاً ولكنه يصحح بسهولة - إذ منذ ثمانين عاماً لم يتوفر لهم (للمؤرخين) العدد الكافي من الوثائق ، كما أن ما حصلوا عليه من وثائق لم تؤرخ كما يجب أو كما كانت أو كما كانت مفهومة . فكانوا يعمدون إلى تقريبها من بعضها البعض ، ولم يكن ثمة تقريب بالمعنى الصحيح بل كانوا يؤلفون بين أنعامها أو يخلطونها ، فلا يحسبون حساباً لما بينها من فوارق أو تعارض بل كانوا يحاولون طمس ما خفي عنهم أو يضعفونها فيتوصلون بذلك إلى إيجازات ترضي النفوس مدة وهي بالحقيقة لاقيمة لها . والمؤلفون يتبحجون بتحليلهم لعصور القياصرة ، والدليل على خطئهم هو أنهم كانوا يعززون أسطورة «نينوس»^(*) و«سمير أميس»^(**) إلى شخص واحد أو إلى شخصين على الأقل ، قام أو قاما بمجموعة غزوات ملوك بابل وآشوريا وألصقوا به أو بهما غزوات كانت لغيره أو لغيرهما .

(١) كتب جيكيير Jequier المنقب عن آثار مصر وبحق كتب : «كلما تخصصت الأعمال كلما ظهرت الفوارق بين العصور، وحتى الآن تميل مجموعات من المؤلفات لتبرز كلاً متماسكاً مما يزيد أسطورة مصر التي لا تتبدل غرابة في نظر الجماهير». تاريخ الحضارة المصرية ص ٨ باريس ١٩٢٣ الناشر بابوت. «المؤلف».

(*) نينوس ملك أسطوري لأشوريا وفتح شهير وينسبون له بناء مدينة «ننوى» حوالي ٢٠٠٠ ق.م، تزوج سمير أميس السورية التي قتلته. «المعرب».

(**) سمير أميس ملكة أسطورية لأشوريا وبلاد بابل وينسبون لها بناء مدينة «بابل» وحدثها المعلقة. «المعرب».

ومن ناحية اخرى ، إذ ما أردنا أن نقدم عرضاً يتعلّق بالشرق القديم ويصف البلاد كما يراها المسافر أو الجغرافيّ ، الآن ، أو إذا أردنا أن نعرض تصورات ذهنية غير مجدّية يجب أن نُنَبِّهها بملاحظة هامة جداً تتلخّص في كلمتين : « ان أولئك السكان (القدماء) كانوا من عالم غريبٍ عن عالمنا ولهم أفكار لا تمتّ بأية صلةٍ بأفكارنا » .

فعند البابليين خاصة ، كان العالم عبارة عن سهل رحيب جداً يرويه نهران عظيمان تحدّه جبال شامخة - القوقاز وطوروس وسيناء - هذه الجبال تسند قبة السماء .^(٢) والكل يطفو على محيط خضمّ لاقرار له ولاحدود .

كيف خُلِقَ هذا العالم ؟ هذا سؤال لم يطرح في القديم قط ، فربما كان البشر يشتغلون أو يشغل بالهم ما هو أهم من هذا السؤال وألزم . ومهما كان الأمر ، يجب إلغاء هذا السؤال الذي يظهر - على كل حال - في نصوص قديمة جداً تعود إلى خمسين قرناً .

إذن لاجواب لهذا السؤال . وهذا ما يدهشنا نظراً لصعوبة المسألة ولطول مدة الحضارة البابلية أو بالأحرى حضارات ميزوبوتاميا القديمة .

أما « كلدّه » فبلاد صغيرة جداً تعادل مساحتها تقريباً مساحة الدانمارك ولم تشكل دولة لها مركزها . فكانت عبارة عن مجموعة من المدن المستقلة بعضها عن بعض مثل : « اور » ، « أوروك » ، « إيريدو » ، « لارسا » ، « سيبار » . هذا وان كانت كلها تتكلم لغة واحدة وتستعمل نفس الخط . وكل واحدة تحتفظ بمؤسساتها ومعتقداتها وتقاليدها . فهذه تعبد « سين » (الإله القمر) وتلك « شَمَش » (الشمس) ابن « سين » ، واخرى عشتار المستقرّة في كوكب الزهرة . في داخل كل مدينة ، كانت الأفكار والعادات تتطوّر مع القرون . ومثالنا على ذلك : إن الحفريات في « أور » موطن ابراهيم (الخليل) أظهرت أنه كان حول هذه المدينة - حوالي القرن الثلاثين ق . م - مقابر واسعة تقام فيها

(٢) قبة السماء أو بالأحرى سبع قباب الواحدة فوق الأخرى ، أو الواحدة ضمن الأخرى ، لكل سيارة من السيارات السبع قبة ، الشمس والقمر من عدادها . «المغرب» .

طقوس غريبة ومراسيم للدفن لم تر بعد ذلك العصر لا في « أور » نفسها ولا في أية مدينة أخرى من مدن ميزوبوتاميا .
في ذلك الزمن ، لم تكن « بابل » إلا مدينة صغيرة بالنسبة لبقية المدن .
وما إن اختارها « حمورابي » - حوالي ١٨٠٠ ق.م - عاصمة له ولامبراطوريته حتى ظهر الإله « مردوخ » واحتل المرتبة الأولى واحتكر لنفسه جميع صفات بقية الآلهة ، وحَظِيَ أخيراً بلقب « الخالق » .

خلق العالم

يقولون في القدم ، كان العالم عبارة عن خَوَاءٍ حقيقي وهوةٍ سحيقة يختلط فيها الماء العذب الذي يختص بالإله « إيسو » بالماء المالح الذي يحكمه مارد آخر يدعى « تيامات » .

من هذه المهواة خرج زوجان من الآلهة ثم زوجان آخران ومن الزوجين الأخيرين ولد « آنو » إله السماء و« إيا » إله البحر . وبما أن « أسو » وتيامات - وبالأخص « تيامات » - طلب « آنو » و« إيا » من مردوخ ابن « إيا » أن يثأر لهما للآهانات التي لحقت بهما منهما . فانبرى هذا ، وبعد معركة حامية ، تغلب عليهما وقبض على « تيامات » وشطر جسمه فعمل السماء من الشطر الأول والأرض من الشطر الثاني . ثم نظم الكون فوضع الكواكب في أمكنتها وفوض لسين (إله القمر) قياس الزمن . وبعد أن استشار أباه « إيا » خلق إنساناً سماه « لوللو » - نجهل معنى هذا الاسم - وقد خلقه خليطاً من الطين والعظم والدم . وهذا الدم كان من دم إله هو ولا شك مردوخ نفسه .

لقد خلق مردوخ « لوللو » ليكون في خدمة الآلهة . وبعد هذا الجهد القاسي الذي بذلته الآلهة والذي اشترك فيه الجميع ركنوا للراحة .
- لم يذكر في هذا العرض لا هبوط الإنسان ولا إيجاد المرأة -

الانسان الأول

إذا أردنا أن نعرف كيف كان البابليون يتصورون الانسان الأول الخارج من بين يدي الخالق فما علينا إلا أن نعود إلى فصل يشغل مكاناً كبيراً في اسطورة جلجامش يتعلق بشخصية « انكي دو » الذي أصبح صديقاً حميماً لجلجامش لا يستطيع أن يفصل عنه .

وبالحقيقة لم يكن « انكي دو » الانسان الأول . ولكنه مثل « لوللو » الذي خلقه « مردوخ » على هيئة تمثال من كتلة من الفخار أو الحجر ثم جاءت الإلهة « أرورو » زوجة مردوخ وأعطته الحياة .

كان « أنكي دو » يعيش في زمن خرج البشر فيه من طور التوحش في عهد الملك جلجامش - هذا الملك من نسل أسرة سيطرت على « أوروك » في « كلده » السفلى . كان « أنكي دو » يقضي حياته في قلب البرية مختلطاً بالوحوش يأكل العشب مثلها ويرد المياه . وكان مملوءاً قوّة وشعره طويل ويغطي جسمه الوبر، عاش طويلاً في اللامبالاة والجهل - كما أرادت له « أرورو » زوجة « مردوخ » .

وذات يوم التقى أنكي دو بصياد جرّه طمعه إلى ناحيته . فدافع عن أصدقائه الحيوانات ، وسرعان ما نشبت معركة بين الاثنين لم ينج الصياد إلا بقارعة الذقن . ولما رجع هذا إلى « أوروك » قص على الملك جلجامش ما حدث له . فأخذه الفضول وصمم أن يقوم بحيلة يستدرج فيها هذا المخلوق الرهيب . فأرسل إلى البرية امرأة - خادمة عشتار - ذات جمال أخاذ . وما عتمت هذه أن كبحت جماح الوحش فاستسلم لغوايتها وبعد ثمانية أيام عاد إلى حيواناته ولكنها نفرت منه (فدهش لذلك) كأنها لم تعرفه أو كأنها خافت منه .

لقد تحول « انكي دو » وانتقل من حياة إلى حياة ، فتبع المرأة بكل شوق فقادته وهي ممسكة بيده إلى بين الرعاة الذين سقوه الحليب . وهكذا طفق « انكي دو » يتحضر شيئاً فشيئاً ولكن بسرعة . وما إن دخل « أوروك » حتى تغذى بالخبز وشرب الخمر ، شرب سبعة أباريق متتالية . ثم دهن جسمه

بالزيت ولبس الثياب على زي المتحضرين وطلب السلاح ليدفع عن الرعاة والقطعان غارات الأسود والفهود . وأعجب جلجامش بقوته الخارقة وشجاعته الفائقة فأحب أن يجعل منه رفيقاً له .

ان الانتقال من حياة إلى اخرى لا يحدث بسهولة . فلما علم « أنكيديو » أنه لا بد له من أن يعمل ليكسب ما يقوم بأوده أصابه الذهول وامتنع وجهه ، فكأنه ندم على حياته الأولى - أيام شبابه - فستتم معلمته خادمة الهيكل التي كانت السبب الأكبر في هذا التحول .

أسطورة « أوانيس »

هذه هي اسطورة « انكيديو » باختصار . وقد قدّم لنا المؤلف « بيروز » شكلاً آخر عن أصل أنكيديو ويختلف كل الاختلاف عما ذكرناه . فهو يقول (أي بيروز) بأن تربية الانسان وتحضيره من عمل مخلوق فوق الطبيعة . وهذا المخلوق يسمّى « أوانيس » ووجد من البحر في زمن كان الناس يعيشون - مثل انكيديو نفسه - كالحوانات .

وقال « بيروز » إن « أوانيس » سمكة لها رأسان : رأس سمكة ورأس انسان ورجلاه تخرجان من ذنب السمكة . ولهذا المارد صوت إنسان . وكان يقضي نهاره بين الناس لايتناول أي غذاء يعلمهم الحروف والكتابة والعلوم والفنون في كل صورها وقواعد تأسيس المدن وبناء الهياكل ومبادئ القوانين والهندسة ويدلهم ويرشدهم على أعمال البذر والحصاد . وباختصار أعطى البشر كل ما يساعدهم على قضاء حياة ناعمة . ولاشيء يحتاجونه إذا ما طبقوا تعاليمه . وعندما تغرب الشمس يعود إلى البحر ويغوص في الماء ويظل طيلة الليل تحت الغمر لأنه كان برياً مائياً . وأخيراً وضع كتاباً عن أصل الأشياء وعن مستوجبات الحضارة وقدمه للناس .

وهكذا - حسب رأي البابليين - لم يتوصل البشر إلى مايفرق بينهم وبين الحيوان من حراثة الحقول وتشييد المدن بالبحث والتنقيب ولا بالتجارب والجهود

المختلفة ولا بالتفاعل . لقد جاءهم العلم دفعة واحدة من قبل الآلهة ولاسيما بفضل هذا الإله الذي دعاه « بيروز » « أوانيس » . ولاشك بأن أوانيس هو الإله « إيا » لأنه في نظر البابليين إله العلم وسيد البحر .

وهذه الفكرة - بأن العلم انبثق من البحر ولم ينزل من السماء^(٣) ولم يأت من باطن الأرض - تدل على أن البابليين حافظوا على تقاليد قديمة وهذه التقاليد تروي بأن شعباً جاء من وراء البحر حاملاً معه مبادئ حضارة تامة . إذ حسب قول « بيروز » لم يتجدد شيء ولم يخترع أي شيء بعد مجيء « أوانيس »

وتتفق هذه الروايات مع بعض الاكتشافات الأثرية التي ظهرت في وادي نهر « الأنديس » الأسفل ، ويبدو أنها تعود إلى عصر قديم جداً وقد توثقت فيه علاقات قوية بين أقطار الهند الغربية وبين البلاد التي يرويها دجلة والفرات في نهاية مجراهما .

وإذا كنا نسلم جداً بأن أسطورة « أوانيس » حقيقة تاريخية يجب قبولها - وهذا مما لا يرضى به العقل - من أن المحيط (البحر) هو الذي رتب الأمور ونظّمها وليس من التجوال في الأقطار وتعلم الناس من بعضهم البعض ، يجب علينا أن نقبل بأن الشرق هو الذي نشر هذه التعاليم أي ان الهند علمت بلاد بابل (بابيلونيا) . وهذا مما لم يتأكد بعد ولكي نكون على ثقة تامة لا بد لنا من الانتظار حتى نضع أيدينا على وثائق تقطع الشك وتضع حداً وبصورة صحيحة لهذه الشكوك ، وثائق أوضح وأجلى مما نعتمد عليه اليوم .

مع ذلك ، لماذا قدّمت الآلهة - أوانيس وإيا وغيرهما - لبني البشر التعليم الذي ينقصهم والمعارف التي تكفل لهم « عدوبة الحياة »؟ فهل ندم الخالدون عندما خلقوهم بؤساء وأرادوا أن يكفروا عن تلك الاساءة؟ وهل قاموا بما قاموا به « شفقة منهم وحباً » كما يقول ذات يوم « افلاطون »؟ .

(٣) يعتقد المسلمون بأن القرآن الكريم نزل من السماء أو نزل به جبرائيل على محمد ﷺ - صرح بذلك النبي مراراً - وفي « أتروريا » Etruria يزعم العرّافون بأن علمهم جاء به قزمٌ شعره أبيض ، اسمه « تاجيس » Tagés خرج فجأة من أخدود شقّ طرياً . « المؤلف » .

من المحتمل أنهم (أي الآلهة) لم يقدموا ما قدموا إلا لفائدتهم الخاصة ، أو كما يقال ، لأنانيتهم كي يصلحوا عملهم ويضيّقوا المسافة التي تبعدهم عن مخلوقاتهم . إذ لا بد لهم من عبيد على هذه الأرض ، عبيد لا يُخجلون أسيادهم وأكفاء للقيام بخدمتهم . ولكن على هؤلاء العبيد أن لا يتعدوا طورهم وأن يحذروا من اجتياز الحدود المرسومة لهم وأن لا يحاولوا أن يقوموا بأعمال جبارة تجعلهم أنداداً لهم فيسرقوا الأسرار . إن تعدوا حيزهم فسيعاقبون العقاب الشديد .

ملوك ما قبل الطوفان

بعد اختفاء « أوانيس » بزمن طويل ولّى الآلهة على البلاد كلدياً من بابل ليكون « راعياً للشعب » . ويدعوه المؤلف « بيروز » « ألوروس » وهو أول الملوك ، ولكنه لم يترك أي ذكرى واضحة في رؤوس رعاياه مع أنه ظل يحكمهم - كما يقولون - ستاً وثلاثين ألف سنة .

و « أولوروس » هو الأول من سلسلة عشرة ملوك - الملوك العشرة قبل الطوفان - ولكننا لانعرف عنهم الا النزر اليسير ، عدا عدد السنين التي حكم فيها كل فرد منهم . ويرتفع هذا العدد إلى أربعة آلاف واثنين وثلاثين قرناً^(٤) . ولانعرف ولن نعرف قط ما مراد البابليين بهذا القول . ولا ريب من أنهم هم لا يعرفون . انهم يحاولون أن يرجعوا أصل ثقافتهم الى زمن عريق جداً بالقدم ويعبرون بأسلوبهم الخاص عن هذه التخيلات وذلك بتكديس أرقام فوق بعضها البعض . ونستطيع أن نقول عنها بأنها فلكية - بقطع النظر عن ضخامتها - وهذه الأرقام لاتمتُّ بأية صلة بالحركات السماوية .

ولأحد أولئك الملوك شأن خاص . وهو السابع ويسميه « بيروز » إيفيدو

(٤) في لوحة بابلية نشرها « س . لانفدون » عام ١٩٢٣ رواية مماثلة لما نقله لنا بيروز وهي تتعلق بملوك ما قبل الطوفان . ومجموعهم ثمانية حكموا ٢٤ قرناً . « المؤلف » .

راخوس « Evédorokhos. وعُثر على اسمه في النصوص البابلية على شكل « إيفيدورانكي » Evédoranki. ويقولون ان هذا الملك تناول العلم من الإلهين « شَمَش » وحدد. - لقد أهمل البابليون « أوانيس » وربما كانوا لا يعرفونه - ونقله إلى الشعوب الميزوبوتامية وهو علم قائم بنفسه ويسمونه « العرافة » .

عرفنا الآن ان البشر خلقوا ليعلموا الآلهة وأن هؤلاء يعاقبونهم لأتفه الذنوب. فعليهم أن يطيعوا رغبات السماء بكل دقة وأن يلبوا نزواتهم .

كيف يعملون إذن كي يحافظوا على هذا الوفاق ويتجنبوا غضب الآلهة؟ وإذا مارأوا أحلاماً - ان الآلهة يوحون ما يخطر لهم بواسطة الأحلام - فكيف يفسرونها بصورة ترضيهم ، هذا إذا كان هناك أحلام فكيف إذا لم تكن؟

الجواب : يعمدون إلى الإرهاصات والدلالات الطبيعية فهي ترشدهم إلى الحقيقة . ولذا يجب الانتباه الكلي ليس إلى تغيرات القمر فحسب بل إلى شكل الغيوم ، فكل حركة وكل تنقل من الزاحفة تحت العشب حتى الكواكب السابحة في ميدان النجوم تعطي اشارة لارادة الآلهة سواء أكانت حسنة أم سيئة . وهنا يُظهر الفن أو العلم عبقريته فيميز إذا كانت الارادة خيرة أم لا . وعلى السّحرة أن يتدخلوا إمّا ليعجلوا مجيء الحظ السعيد واما لدفع القوى المعادية التي تهدد الحياة ، وليس المقصود حياة الأفراد أو عامة الشعب بل حياة الملك الذي يناط به مصير الأمة بأسرها .

وهذا الملك الذي أودعته الآلهة العلم كان - كما مر - السابع من دولة ما قبل الطوفان . فهو يطابق حسب الترتيب الوراثي إلى « أخنوخ » (ادريس) الذي يشغل المرتبة السابعة من سلسلة آدم^(٥) - سلسلة الأنبياء ما قبل الطوفان - ومن الملحوظ أنه لا يوجد أي اشتراك بين الاسمين مع أن أعمالهما واحدة تماماً .

(٥) نستطيع أن نقارن في مسألة اخنوخ مع نمرود الذي تحدثت عنه التوراة (تكوين الاصحاح العاشر عبارة ٨ إلى ١٠) . ونسجت حول نمرود هذا أساطير مختلفة عند اليهود ثم عند المسلمين . «المؤلف» . إن كلام التوراة في الاصحاح المذكور هو: «وكوش ولد نمرود الذي ابتداءً أن يكون جباراً في الأرض الذي كان جبار صيد أمام الرب ، لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب . وكان ابتداءً مملكته «بابل» و«أرك» و«كلده» في أرض «شنعار» من تلك الأرض خرج «أشور» وبنى «نينوى» و«رحوبوت عبر» و«كالح» و«رسن» بين نينوى وكالح هي المدينة الكبيرة . «المغرب» .

والحق يقال ، إن النص التوراتي المتعلق بسابع الأنبياء (أخنوخ) موجز جداً . قال : « وسار أخنوخ مع الله ولم يُوجد لأن الله أخذه^(٦) . وقد أصبح أخنوخ بطل حلقة من الأساطير جعلته مخترع الكتابة ومؤلف أول كتاب وموجد علم الكواكب والسيارات : علم الفلك وكل الفلكيات . فهو يبدو وكأنه « فيدورانكي » . ونستطيع أن نتقبل بارتياح بأن أسطورة اليهود هذه ليست إلا نقلاً أو توسعاً للأسطورة الكلدانية التي هي أقدم^(٧) .

وبين بقية الملوك والأنبياء - اسلاف « إيفيدورانكي » و « أخنوخ » الستة وخلفائهم الثلاثة - صفات مشتركة ، ولايمنا إلا الشخصية العاشرة التي عايشت الطوفان .

الطوفان

ثار البشر ضد طغيان الآلهة واهملوا واجباتهم أو انهم ارتكبوا الكثير الكثير من الموبقات والآثام ولاسيما الفضول مثل الفضول الذي أطاح بآدم . فمن المحتم ليس معاقبتهم بشدةٍ فحسب بل ملاشاتهم ومحوهم من الوجود - ماعدا شخص واحد كان مستقيماً هو « أوم نايشتي » Oum Napishti - وابداهم بقوم آخرين أكثر إطاعة . والدرس القاسي الذي يبيّن لهم يكفي لكبح جماحهم ويكفل خضوعهم التام .

هذا هو رأي « بل » إله الأرض ففتح بالخفية عن بقية الآلهة جميع سدود السماء على مصراعيها . ولما رأت عشتار هذا المنظر الرهيب أرسلت صرخة قوية : « ألم اخلق البشر إلا ليملأوا البحر كالأسماك » .

ولكن ماحدث قد حدث ، فنشطت العناصر من عقالها حتى ان الآلهة أنفسهم خافوا من الغرق فصعدوا حتى أعلى سماء وهناك انطوا « مثل

(٦) السلسلة : آدم ، شيث ، أنوش ، قينان ، مهليليل ، يارد ، ثم أخنوخ . «المغرب» .

(٧) الاصحاح الخامس من سفر «تكوين» عبارة ٢٤ ، وعند المسلمين أن الله رفعه مكاناً علياً . وعلم الناس كل شيء . «المغرب» .

الكلاب » . لقد تجاوز « بل » بحقه كل المعايير . إذ ليس البشر وحدهم بمهتدين بل الآلهة أيضاً في أكبر الخطر .

انتهى زمن الطوفان وعادت المياه إلى مجاريها الطبيعية . وخرج « أوم نابيشتي » من السفينة ليقدم قربان الشكر واطمأن الآلهة واستنشقوا الرائحة الطيبة - رائحة القربان - فأسرعوا كلهم وتجمعوا « مثل الذباب » حول عابدهم الوحيد والباقي .

لقد وجد ، وليس منذ زمن بعيد ، في أمكنة مختلفة من بلاد « كلده » آثار واضحة جداً من الفيضانات التي حدثت - كما يبدو من مستوياتها - في عصور عريقة بالقدم . وكثير من المؤلفين فكروا بأن هذه الفيضانات يعود تاريخها إلى الطوفان ، أو بعبارة أخرى : إن هذه الآثار تثبت الحقيقة التاريخية لهذا الحدث الخطير . ولكن عندما نتحقق الأمر نلاحظ أن طبقات الفيضانات ليست كلها على مستوى واحد ولا تدل على فيضان واحد بل على اثنين - اثنين على الأقل - منفصلين عن بعضهما بعدد من القرون .

وليس من المستغرب أن يحدث في تلك البلاد التي ترتفع قليلاً عن سطح البحر أمثال هكذا احداث ، من نوع المدّ والجزر ، التي تترك في عقلية السكان وعلى وجه الأرض آثاراً لا تقبل المناقشة . ومن الحق أن نقول بأن هذا المبدأ هو الأصل لجميع الأساطير المتعلقة بالطوفان وإن هذه الذكريات المختلفة تدرجت عبر القرون وتجمعت واختلطت ببعضها البعض وشكلت وحدة تامة ذابت كلها في كارثة واحدة دُعيت ، ذات يوم ، بالطوفان العالمي .

إذن لقد هدأت العاصفة الرهيبة وعادت الآلهة ، كل إلى مكانه ولم يبق على وجه الأرض إلاّ كائنان حيّان : الملك العاشر « اوم نابيشتي » وزوجه اللذان نقلهما الإله « بل » الواحد بعد الآخر إلى بلدٍ بعيد جداً عن هذا العالم الأرضي ، إلى « منبع الأنهر » حيث يتمتع الزوجان بنعيمٍ دائم مكافأةً لهما على استقامتهما . ولكن بينا الرواية التوراتية تقول : « إن نوحاً وزوجه أوجدا بشرية ثانية خلفت البشرية المنبثقة من آدم وحواء ، فإننا لانرى في الأسطورة البابلية

أن أوم « نايشتي » وزوجه أنجبا بشراً . وستكلم فيما بعد عن ذريته ولاسيما عن واحد منها هو المسمى جلجامش^(٨) .
على أي حال ، فقد أصبح معلوماً بأن « أوم نايشتي » بقي وحده من بين جميع الناس يشارك الآلهة ولا أحد غيره^(٩) . ولكن ظهر شجعان من البشر غزوا السماء واستطاعوا بأن يكونوا ولو لمدة قصيرة قرييين من الوصول إلى مرتبة الألوهية . ومن هؤلاء البطل « أدايا »^(١٠) . وإليك قصته .

أسطورة « أدايا »

كان « أدايا » يسكن مدينة « ايريدو » في أقصى جنوبي « كلده » على ضفاف الخليج العربي ، أو كما كانوا يقولون : « النهر المز » . وبما أن « ايريدو » كانت مخصصة لعبادة « إيا » ، كان « أدايا » من زمرة عبيد إله البحر (إيا) الذي كان - كما نعلم - إله العلم . وكان « أدايا » لايشغل مكاناً رفيعاً بين كهنة « ايريدو » ولذا كانوا يستخدمونه في عمل الخبز لاغير .
وبما أن « أدايا » كان عبداً مخلصاً ومستقيماً فقد صمم معلمه « إيا » أن يعلمه كل مايعلمه - دلالة على رضاه منه - . فأصبح « أدايا » ، أسمى مرتبة من غيره . وعندما يفرغ من عمله وينصرف إلى لهوه كان يذهب لصيد السمك

(٨) إذا كان نوح قد ترك ذرية فإنه يجب أن يموت - كما مات أسلافه - ماعدا أخنوخ ولكن « أوم نايشتي » ظل خالداً إلى الأبد - كما جرى فيما بعد للنبي ايليا . « المؤلف » .

(٩) ومع ذلك نرى وفقاً لبعض الروايات المتوارثة والغربية جداً عن ملحمة جلجامش ملك أوروك بأن هذا قبل أخيراً في عداد الآلهة ، إذ نراه - فيما بعد - يشارك شمس في محاكمة الموتى . « المؤلف » .

(١٠) إن نص أسطورة « أدايا » لم يُعثر عليه في ميزوبوتاميا بل في مصر العليا وقد وجد بين آثار قصر « أمينو فيس » الرابع في تل العمارنة . هذه الأنشودة الطويلة كانت من ضمن مكتبة الكتبة البابليين المرتبطين بديوان استشارة فرعون والذين كانوا يكتبون بقية البلدان الأسوية ، ليس في آشوريا وكلدنة فحسب بل أيضاً في فلسطين وسوريا حيث كانت اللغة البابلية هي الرسمية منذ القرن الرابع عشر ولادة طويلة . « المؤلف » .

من مياه النهر المر . وذات يوم وبينما كان بعيداً وبعيداً جداً عن الشاطئ هبت ريح الجنوب فجأة بعنف شديد فغرق مركبه ولم ينجح « أدايا » إلا بأعجوبة . فاستشاط غضباً من ريح الجنوب - الذي كان يسمى « شوتو » وهاجمه ونشبت معركة هائلة بين الاثنين انتصر فيها « أدايا » فقبض على « شوتو » وكسر أجنحته لأنه - كبقية آلهة الرياح - كان له شكل طائر كبير . وخلال سبعة أيام - أسبوع كامل - لم تسمع لريح الجنوب أية نامة . ولما تقصّى « آنو » إله السماء عن سبب هذا الهدوء ، قيل له : « يامولانا ! إن خادم « إيا » كسر أجنحة « شوتو » .

عندئذ أرسل « آنو » مبعوثاً إلى الأرض بسرعة فائقة ليجلب « أدايا » دون توقف إلى ساق عرشه . ولم يستطع « إيا » أن يمنع عدالة « آنو » من أن تأخذ مجراها . وبما أن الحدث خطير جداً ، تقدم لمساعدة تابعه المفضل وأرشده إلى الفخاخ التي ستصيب له في طريقه وكيف يتخلص منها . قال له : « عندما تصبح في حضرة « آنو » سيقدمون لك طعام الموت ، فلاتذق منه لقمة واحدة ، ويقدمون لك شراب الموت فلاتشرب منه ، ويقدمون لك ثوباً فارتده ويقدمون لك زيتاً فامسح به جسمك » .

وبعد هذه التعليمات صعد « أدايا » إلى السماء - ولاندرى بأية وسيلة - واستجوبه « آنو » وسأله لماذا كسر جناحي شوتو . فقص عليه ما حدث وأنه كان في حالة الدفاع عن النفس . فقبل « آنو » أعذاره أو تظاهر بقبولها وصرح بما أن « إيا » أعطى العلم لأدايا فهو (إيا) سيعطيه الخلود . فأمر خدمه بأن يقدموا له ثوباً وزيتاً . وكما أوصاه سيده ، لبس الثوب ومسح جسمه بالزيت .

ولكن هاهو إله السماء يأمر بتقديم غذاء الحياة وشراب الحياة ، فتذكر « أدايا » قول « إيا » : « سيقدمون لك طعام الموت وشراب الموت فلاتقرهما » وبما أن « إيا » هو مولاه المباشر عليه أن يطيعه أولاً ، ولذا رفض تناول الغذاء والشراب لأنه ظن أن « آنو » نصب له شركاً ليقتله بدلاً من أن يهبه الخلود . فقال « آنو » وقد امتلاً غيظاً : لم تشرب ولم تأكل ؟ فأجاب « ادايا » بكل سداجة : ذلك لأن سيدي « إيا » قال لي : « عندما تصبح في حضرة

« أنو » حذار أن تأكل خبزاً وأن تشرب ماءً يقدمان اليك ، لأنها غذاء وشراب من يموت » .

ولما سمع رب السماء هذه الكلمات أمر حدمه بطرد « أدايا » المتمرد من حضرته وباعادته أو برمييه إلى الأرض .

وهكذا نرى أن « أدايا » الذي كان يملك العلم أو شك أن يكتسب الخلود - كما يقال - ولكنه بسوء تصرفه وغبائه أو باطاعته العمياء لسيداه أضاع الفرصة المتاحة - الوحيدة ولاريب - فعاد إلى « إيريدو » صفر اليدين ليتسلم وظيفته السابقة . فكان كغيره ضحية اختلاف الآلهة . إذ بين تلك الأوامر المتضاربة - كل يجره إلى ناحية مختلفة - احتار ولم يعرف كيف يختار .

ولكن هل كان مخيراً حراً ؟

أسطورة « إيتانا »

يروون أيضاً : ان ملكاً يدعى « إيتانا » كان يخدم نساً . وقد تفانى في خدمته وقدم له كل ما يحتاجه . فتأثر النسر وطلب منه : « أي مكافأة تبغي ؟ » وكان الملك يتوق إلى شيئين لازمين له هما : شعائر السلطة التي تسمح له أن يوطد ملكه ، وعشب يسمى « عشب تسهيل الولادة » ليقدمه لزوجته التي هي في حالة الوضع . ولكن العشب والشعائر موجودة في السماء فرأى الفرصة سانحة لأنه مضطرب في كلا الأمرين . ولذا قبل بكل سرور وطلب من النسر أن يرفعه وينقله إلى مقر الآلهة .

ربط ، إذن ، « إيتانا » نفسه إلى عطفني حامله وكلما صعد به إلى الأعلى كان الملك لا يستطيع أن يخفي دهشته ، لقد رأى الأرض تصغر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت في نظره مثل جبل ورأى البحر كبركة . ووصلا إلى سماء أنو ، وبعد استراحة قصيرة واصلا الارتفاع - إذ يجب عليهما أن يصعدا إلى سماء « عشتار »

لأن هذه تملك النبتة العجيبة - وبعد ست ساعات من الطيران أصيب « إيتانا » المسكين بالدوار فأفلت يديه وسقط على الأرض بغباوة^(١١) .
لقد ارتكب « إيتانا » ولاشك بعض الأخطاء فعاقبته الآلهة ورفضت أن تقدم له شعائر السلطة والعشب الذي يؤمن له الذرية . وهكذا كان طموح « إيتانا » أقل من طموح « أدايا » وإن كانت جرأته أقل نوم . ثم ان الفرصة التي اهتبلها ليست ممتازة فكان عليه أن يقوم بعمل آخر وذلك لإيجاد سلالات المستقبل .

الالهة « عشتار »

إذا كانت آلهة « كلدة » كثيرة وإذا كان البعض منها قد تورط في مغامرات أو شارك في مؤامرات - كما رأينا من قبل وكما سنرى - فإن عشتار هي الربة الوحيدة التي لها صفاتها الشخصية . أما غيرها من الإلهات ليست إلا أسماء بدون شخصية . وماهذه الأسماء الا اشتقاقات لغوية ، وهذه الآلهات مظاهر لها . مثلاً : لانعرف الإلهة « أنتو » الا بالاسم فقط - ولاعمل لها - وبيعض الكنايات كأم الآلهة وزوجة « أنو » وأم « عشتار » . ومن المظنون : إن البابليين ليسوا بأكثر معرفة منا عنها .

ونحن لانبحث عن معنى اسم « عشتار » ولا عن ماهيته . فهذه محاولة قام بها الكثيرون ، وكانت النتيجة أقل بكثير من الجهد . ومع ذلك فإننا سنعرف ماهو المقصود من هذين المقطعين (إيش - تار) من المؤكد انها كلمة مختصرة تعبر عن احدى مظاهر الشخصية . كما قالوا عنها مع كثير من الصواب : « إن الكلمات علامات وإشارات وليست تعاريف ؛ والأسماء مثل الكلمات » .

(١١) قصة « إيتانا » تمثل أقدم حالة عرفتها رواية الإنسان الذي يريد أن يغزو السماء . وفي الغرب - في القرون الوسطى - نرى الاسكندر الكبير بطل رواية غزو السماء ، انظر ميليت Millet في مجلة سوريا ١٩٢٩ عدد ٤ صفحة ٨٥ ومايتبعها . « المؤلف » .

وإذا كان لاسم عشتار علاقة جد وثيقة - علاقة اشتقاقية - بينه وبين كلمة «astre»^(١٢) (في السنسكريتية ستار stare وفي اليونانية أستير aster) فمن الثابت أن ينطبق تماماً على الربة عشتار Ishtar المتجسدة في كوكب الزهرة Venus . ولكن من يستطيع أن يؤكد بأن هذا هو الانطباع القديم للربة . أو نقول : إن عشتار كانت تتمثل أو تتجسد بكوكب ثم تنزل بعد ذلك من عليائها إلى الأرض لتشارك في حياة العالم ولاسيما بحياة البشر فتشرف على غرامياتهم أو على معاركهم ، لاريب من ان عشتار لم تكن تشبه كوكب الزهرة فحسب بل كانت متجسدة فيه ، ولها شكل إنساني . وإن لم تكن إلهة أم فهي متعلقة بالحياة . بل كانت الحياة نفسها ، الحياة المتجسدة أو المتألهة .

وإذا كان اسم عشتار أجرى على الألسنة وأكثر استعمالاً في النصوص القديمة فان لها أسماء وصفات أخرى لم تزل غامضة . وكل اسم وكل صفة تطابق دوراً خاصاً تقيم به الربة العظيمة في مناسبة ما .

ويجب أن نذكر ان اسم عشتار يُطلق على إلهة ، ومع ذلك ليس باسم مؤنث . ففي بعض أقطار العالم السامي - بلاد العرب الجنوبية - كان هذا لا يُطلق على ربة بل على رب .

ويوجد الكثير من الأمثلة في تغيير الجنس - التذكير والتأنيث - بين آلهة الأساطير ولاسيما للالهين الشمس والقمر . وبما اننا نتكلم عن عشتار فهي مؤنثة عندما تمثل نجمة المساء وهي مذكرة في مظهر آخر أي عندما تمثل نجمة الصبح .

إننا لانعرف الكثير من أساطير عشتار ، والذي نعرفه فصول منفصلة عن بعضها ، أما الرابط بينها فهو غير واضح تماماً . ومهما كان الأمر ، فإن سرّد تلك الفصول صعب جداً ، إذ كل سرّد لأية أسطورة قديمة ليس بالسهل . في أسطورة جلجامش ملك « أوروك » نجد مانستطيع أن نسميه « رواية عشتار » أو « تاريخ غراميات عشتار » . قالت الأسطورة : بعد أن انتصر

(١٢) عربنا كلمة Syllabe بمقطع ، إذن عشتار Ishtar مؤلفه من عَشْ وتار Ish et tar «المعرب» .

جلجامش على مارد جبل الأرز عاد إلى عاصمته فاغتسل وغسل سلاحه وشحذها وارتدى ثوباً أنيقاً جديداً وأسدل شعره على كتفيه وأحاط جبينه بتاج . وبرز بكامل جماله . فحدث ان نساء البلاد لما نظرته افتتنَ به كل الافتتان حتى ان عشتار نفسها شغفها حباً . فخاطبته بعد أن ملأت عينها منه وقالت : « تعال يا جلجامش وكن زوجي ، فأهبك عربةً من لازورد وذهب تقرن إليها أجمل الخيول وأضخمها وتدخل قصري وعندما تدخل يركع عند قدميك السادة والأمراء والملوك ويقدمون لك - برهاناً على خضوعهم - محاصيل السهل والجبل . . . »

ما كان موقف جلجامش من جميع هذه المغريات ، أو كما يقال ما كان رد الفعل عنده ؟ كان رد الفعل غير منتظر . لم يستجب ملك أوروك ولكنه رفض بسرعة وبكل عنف كل مقترحاتها . وويخها بعبارات حماسية على قلبها وخياناتها الماضية ؛ لأنها لم تحب أحداً إلا ونبذته ولم تكتف بنبذه بل حوّلته إلى حيوان ولاحقته بحقدتها حتى النهاية ، ماعدا «تموز» فقد كان حبيبها الأول الذي صدقت له .

ولكن « تموز » (أدونيس) اختفى بعد قليل من الزمن ، والشاعر (مؤلف الاسطورة) لم يذكر كيف مرت الأحداث ولكنه يذكر انها أمرت - دليلاً على وفائها وحزنها - الناس والطبيعة كلها أن تبكي الإله الشاب كل سنة . وأحبت عشتار بعده شخصاً آخر . وسرعان ما حوّلتها إلى طائر^(١٣) لكي تنتقم لإهانة صدرت منه . ولم تكتف بل كسرت جناحيه ، فقبع المسكين البائس في أعماق الغابات يصرخ دون انقطاع : « يا جناحي ! يا جناحي ! » . ومعنى هذا في البابلية : « كابي ! كابي ! » ويبدو أن جل همّ هذه القصة هو تفسير صوت بعض الطيور ، صوت يشبه كلمة « كابي » . وربما كانت هذه فكرة الشاعر لا غير . لكن من يستطيع أن يؤكد ذلك .

وكثيرون شقوا من تقلبات عشتار ، فهذا حولته إلى أسد وذاك إلى حصان

(١٣) يقول الأستاذ عبد الحق فاضل في ملحمة جلجامش بأن هذا الطائر هو الشقراق . «المعرب» .

والثالث الذي كان راعياً مسخته إلى فهد . وجعلت كلابه (كلاب الراعي)
تلاحقه بكل شراسة حتى مزّقت بأنيابها جلده ولحمه .
كان جلجامش يعرف كل هذا فأعتبر بغيره ولذا رفض عرض عشتار
وأجابها دون دوران في نهاية كلامه : « ستحبييني ولاشك ثم تحولينيني بعد ذلك
إلى حيوان » وبالاختصار فليست عشتار هذه - كما يظهرها شاعر جلجامش -
إلا نوعاً من « سيرسي^(١٤) » ولا يريد جلجامش أن يكون حظه حظ رفاق
« أوليس^(١٥) » .

نزول عشتار إلى الجحيم

بين أساطير ميزوبوتاميا القديمة كان نشيد نزول عشتار إلى الجحيم أوسع
انتشاراً - في ذلك الزمن - والمستند قصير جداً لم يطرأ عليه أي تلف لحسن
الحظ . ومع ذلك فالدلالة الحقة والتناول الواقعي بعيدان عما جرى من أحداث
وذلك لكثرة الشراح المختلفين .

يروون أن «عشتار» أحببت ذات يوم أن تهبط إلى عالم باطن الأرض إلى تلك
البلاد التي - كما يقول شاعر الاسطورة - لم يُعد منها أحد والتي يعيش فيها الموتى
- أو الأرواح - بكل شقاء ، محرومون من النور ، وطعامهم التراب الذي دُفنوا
فيه .

وصلت «عشتار» إلى عتبة باب عالم الظلمات وأمرت حارسه أن يفتح
لها . ولكن هذا يأتمر بأوامر « إيريشكيغال » Ereshkigal ملكة الجحيم ، ولذا
تردد لابل قاوم لأن مولاته لم تخبره مسبقاً بزيارة أختها . فأرعدت «عشتار»
وأبرقت وهددت بكسر الباب ، لأنها تريد أن تدخل . وستدخل .

(١٤) سيرسي Circe ساحرة لها دور كبير في ملحمة أوديسا هو ميروس ، لجأ أوليس إلى جزيرتها . فأحبته
ولكي تحتفظ به سقت رفاقه شراباً سحرياً فاستحالوا إلى خنازير صغيرة . «المغرب» .

(١٥) أوليس Ulisse ملك أسطوري يوناني كان في مدينة «إيتاك» وهو أحد أبطال حرب طروادة ، أشتهر
ببقائه وسعة حيلته ، وهو والد «تليماك» . «المغرب» .

لماذا تريد « عشتار » أن تدخل عنوة وتصر على الدخول خفية عن أختها ؟ هي نفسها تجيب: كي تخرج الموتى إلى مافوق الأرض ، لا لتنقذهم من يؤسهم ولا لتعيدهم إلى الحياة وترجعهم إلى النور - كما كانوا يفكرون - ولكن « ليأكلوا الأحياء » ، فهؤلاء يتكاثرون ويعملون فاذا ماقلّ عددهم سهلت لهم الحياة . ولذا صرّحت : « إن الأحياء أكثر من الموتى » . فيجب أن تتخلص منهم (من الأحياء) .

قبلاً في زمن الطوفان ، كانت عشتار تدافع عن الجنس البشري أمام أخيها « بل » . أما الآن فهي تريد أن تمحقهم وتمحوهم من الوجود وذلك بتسليط الموتى عليهم . وللوصول إلى غايتها جاءت تستنجد بالقوى المظلمة الموجودة في باطن الأرض .

غضبت « إيريش كيغال » من هذه الزيارة المفاجئة ، ولكنها وافقت بعد جدال صارخ على دخول أختها عالم الجحيم ، شرط أن تخلع (عشتار) عنها كلها تخطف باباً - وللجحيم سبعة أبواب - وعلى التوالي تخلع : تاجها وعقدها ومنطقتها وملابسها ثوباً بعد ثوب .

قبلت هذه مضطرة بكل ما فرض عليها واجتازت الأبواب باباً باباً . ولما وصلت إلى وسط المكان ، رأت نفسها عارية من كل قوة فهي لا تحمل شيئاً حتى ولاشارة واحدة من شارات السلطة . فهي - كما يقال - منزوعة السلاح . لقد سقطت في الشرك وأصبحت سجيناً . ولكن مع من ؟ مع الموتى . فهي والحالة هذه من عدادهم .

وبما أن غيابها قد طال في باطن الأرض ، فإن الحياة تعطلت من على وجه الأرض وبطلت . فالمواسم لا تنضج ، لقد ذبلت النباتات وعقمت الكائنات من بشر وحيوان ، فلا ينسلون . الخراب يهدد العالم ؛ إن مكان « عشتار » على الأرض لا في مملكة الظلام . والبرهان واضح . وليست هي وحدها المهتدة بالزوال ، بل الكون بأسره .

وأرسلت « إيريش كيغال » تُعلمُ الإله « إيا » . فأمر هذا أن تعود « عشتار » إلى سطح الأرض دون إثارة الموتى على الأحياء . ومن نفس الطريق التي سلكته ، شريطة أن تعاد إليها أثوابها وشاراتها كلما اجتازت باباً . وما ان ظهرت الإلهة ، حتى تفتحت الحياة من جديد . ولا يجوز أن يبقى من هذا الحدث الخطير إلا ذكرى قلبي كبير .

وهكذا فشلت « عشتار » وفشلت خطتها في إثارة الأموات . ونقول بأنها كانت تجهل قبل نزولها إلى الجحيم حالة تلك الأرواح وما يقاسونه من ألمٍ وشقاء . إنهم كثيرو العدد ولكن لاحول لهم ولا طول . فما الجدوى من كثرتهم ؟ وقد يتألمون عندما يقترف أحد أبنائهم ذنباً أو يمتنع أو يُمنع من أن يسكب الخمر على القبر .

لقد تأكد هؤلاء من أنهم يعيشون بعد الموت - ولكن في ظلام دامس - وليس لهم أي ثواب ، إلا إذا سلكوا السلوك الحسن في دار الدنيا ؛ أي بالتقوى كما حدث « لأوم نابيشتي » أو بتطبيق القوانين بين الناس كما فعل « همورابي » .

جلجامش

في سنة ١٨٤٣ بفضل المبادهة الأولى التي قام بها «بول إميل بوتاً» سفير فرنسا في الموصل ، اكتشفت آثار نينوى عاصمة اشوريا ، ومن ثم بدأت الحفريات فظهرت نتائج باهرة ، ولكن «بوتاً» توقف عن التنقيب لقلة المال . واستؤنفت الأبحاث من قبل علماء آثار انكليز وسرعان ما ظهر للوجود كنز ثمين : المكتبة الضخمة التي أقامها « أشور بانيبال » آخر ملوك « أشوريا » العظام خلال حكمه الطويل (٦٦٨ - ٦٢٦ ق. م) لقد اكتشفوا (٢٠٠٠٠) لوحة من الفخار المحروق وحملوها إلى لندن وهناك عكفوا على فك رموزها وتوصلوا إلى قراءة كتابتها وترجمتها - كانت مكتوبة بالخط المسهاري - ووجدوا بين هذه الوثائق فصلاً متنوعاً للحممة شعرية تقع في اثني عشر نشيداً ، بطلها « جلجامش » أو « جلجامش » .

ومن عام ١٨٧٢ إلى ١٩٠٠ ، لم تكن أسطورة « جلعامش » معروفة إلا من طريق رواية آشورية تعود إلى القرن السابع ق. م ولكن منذ ذلك الزمن جمع الكثير من القطع ، البعض منها يعود إلى عهد حمورابي (القرن الثامن عشر ق. م) والبعض الآخر استخرج من قصر ملوك الحثيين في قلب « الأناضول » وتعود إلى القرن الرابع عشر ق. م .

وبمقارنة هذه القطع الأصيلة المتنوعة مع النص النينوي بدت معلومات قيمة . ليس في سد الشغرات فحسب بل أظهرت تماماً بأن قصيدة « جلعامش » لم تكن على شكل واحد في عهد الآشوريين . وهذا برهان على ان الأسطورة تطورت بصورة ملحوظة عبر الأجيال . وبتعبير آخر فإن الكتبة لم يكتفوا بنسخ النص القديم بشكل أمين وحر في بل أضافوا وبتروا وحوّروا . وهذا مما يدل أو يشارك في الدلالة على أن « الفكرة » التي انتشرت - مع خطئها - بأن الشرق ماكان ولن يكون قط جامداً متكمشاً .

بطل هذه القصيدة الطويلة « جلعامش » . وكان يعرف بغير هذا الاسم ، فقديماً - منذ ستين أو ثمانين سنة - كان يدعى « إزدوبار » . وهذه التسمية جاءت نتيجة خطأ كبير في القراءة . أما الآن فقد تأكدت بصورة نهائية على « جلعامش » .

مامعنى هذا الاسم ؟ نستطيع أن نقول أنه غير قابل للتفسير بالرغم عما ورد من تخمينات عديدة . وعلاوة على ذلك ، يبدو من المستحيل أن تُعزى هذه التسمية لاحدى لغتي « ميزوبوتاميا » في القدم : اللغة الأكادية التي تعود إلى الأسرة السامية ، واللغة السومرية المجهولة الأصل .

ومهما كان المعنى ؛ فإن هذا الاسم « جلعامش » كان معروفافي الزمن الغابر ؛ فنراه في « تاريخ الحيوانات » للمؤلف « إيليان » اليوناني من القرن الثالث ، على شكل « جلعاموس » . والقصة التي يعرضها « إيليان » هذا عن « جلعاموس » لاتمسّ من قريب ولا من بعيد بما جاء في الملحمة البابلية . بل هي تشبه كثيراً أسطورة بطل آخر : « الملك إيتانا » . والظاهر انه حدث التباس

في مخيلته أو في مخيلة من أخذ عنهم المعلومات فخلط بين « إيتانا » و « جلجامش » .

وعلى رأي هيرودتوس ، كان يوجد في ليبيا قبيلة تحمل اسم « جيل جيمان » . وهو اسم شبيه بشكل مدهش لاسم « جلجامش » . ولكن لاشيء يؤكد علاقة اشتقاق هذا الاسم لسكان افريقيين من اسم البطل البابلي .

ولقد عرف المصريون - في الزمن القديم - الشخصية التي نحن بصدددها . إذ عثر في وادي النيل في جبل الأراك على مُذبة شفرتها من صوّان لامن معدن ومقبضها من عاج تحمل على أحد وجهيها صورة رجلٍ قائمٍ ممسك بكل وقارٍ ثورين قائمين واحد عن يمينه والآخر عن يساره . وهذا منظر نشاهده على عدد كبير من الآثار البابلية ويمثل عادة « جلجامش » في صراعه مع الحيوانات المتوحشة .

كان « جلجامش » صياداً كبيراً ومروراًً للحيوانات المفترسة . ولذا شَبَّهه بنمرود الشهير في سفر التكوين^(١٦) (التوراة - تكوين - الاصحاح العاشر العبارة ٨ إلى ١٠) . وحتى انهم ذهبوا إلى أنه هو نفسه . وظلوا مدة طويلة - في بدء هذه الدراسات - يسمون القصيدة « ملحمة نمرود » . والحقيقة : ان المقايسة بين الشخصين بعيدة جداً . فنحن لانعرف عن نمرود إلا ثلاث عبارات وردت في السفر المذكور . بينما نعرف عن « جلجامش » نصاً طويلاً واسعاً ، - رغم الثغرات - لابل أطول بكثير مما أوجدته « ميزوبوتاميا » من ملاحم وأطول مما عرفه الشرق القديم وتركه لنا حتى في ميدان الشعر ، أو في مجموعة الشعر المستخرج من « رأس شمرا » .

ويجب علينا أن نذكر أن من بين المدن التي كان يحكمها « نمرود » مدينة « إيريك » ، ويعتبرون - وهذا حق - إن هذه المدينة ليست إلا « أوروك » التي

(١٦) العبارة الواردة في السفر: «الذي كان جبار صيد أمام الرب، لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وأرك وكلدنة في أرض شنعار». وقد مر معك. «المعرب».

كان « جليجامش » ملكاً عليها . إذن كان ملكاً أو بالحقيقة سيد إحدى مدن « كلدة » القديمة . وتلك المدن - كما نعرف - مستقلة الواحدة عن الأخرى ولم تجتمع تحت صولجان واحد ؛ لكل منها نشاطها ومنافساتها وحروبها مع بعضها أو مع غيرها من مدن البلاد المجاورة ولاسيما مع عيلام أقرب جارة لها .

إذن توجد أسباب تجعلنا نؤمن بأنه كان يوجد في زمن قديم جداً^(١٧) ملك اسمه « جليجامش » . وهذا الاسم مندرج في لائحة ملوك « أوروك » - كُشِفَتْ حديثاً - ولكنه ليس في أول القائمة - كما ينتظر - . فجليجامش التاريخ لم يؤسس دولة بل كان في عداد ملوك - لانعرف عنهم شيئاً من الوجهة التاريخية إلا أسماءهم .

ولكن ، أليس من المسلم أن تكون بعض الأساطير أجدى من التاريخ ، أو إن صدق بعض الأساطير أسمى من صدق التاريخ ، وأشهر . هكذا قال الأثري الكبير « إدمون بوتيه » من قبل ، وقوله حق ، فقد كتب ذات يوم بعد أن نَقَبَ بدقة كعاداته ، قال : « لماذا كان تيسوس^(١٨) صديقاً « لهرقل »^(١٩) ثم استطرد في نهاية بحثه : « لاحظتُ - وأنا انهي بحثي - أنني لم أطرح سؤالاً يبدو لي انه هام جداً : هل وُجِدَ « تيسوس » ؟ وعلى هذا السؤال لم يتردد « بوتيه » في الإجابة ، حتى لايشكك قراءه - ومايهنا ذلك ؟ فليس الأحياء هم الذين وجدوا بصورة مادية ، فإذا كان « تيسوس » و « أخيل » و « أوليس »^(٢٠) و

(١٧) أكثر من أربعة آلاف سنة . «المغرب» .

(١٨) تيسوس بطل يوناني ، نصفه تاريخي ونصفه أسطوري ، اشتهر بخروجه من المناهة وقتل المارد «المينوتور» في كريت . «المغرب» .

(١٩) هرقل أشهر أبطال الميثولوجيا اليونانية ، قام بأعمال خارقة جداً . وهو ابن جوبيتر . «المغرب» .

(٢٠) مر ذكره . «المغرب» .

« دون كيخوت »^(٢١) و « فيغارو »^(٢٢) و « دون جوان »^(٢٣) و « جيل بلاس »^(٢٤) لم يوجدوا فهم كائنات لهم واقعية سامية يحسدون عليها . أليسوا أحياءً أكثر من آلاف الأشخاص الذين عاشوا وماتوا مغمورين .

وعلى أية حال ، ليس « جلجامش » الذي كتب عنه التاريخ سطرين يسترعي انتباهنا ولكن « جلجامش » الذي وصلتنا اسطوره الشعريه .

ومن اللازم أن نقول : إن هذه الأسطورة كانت نتيجة أعمال فردية أو اجمالية من أبحاث عميقة شائقة . وقد حلت هذه الأعمال الكثير من العقد الصعبة ، - وإن كان قد بقي منها بعض المسائل معلقة - . فما علينا الا أن نأخذ ملحمة « جلجامش » بصورة عامة ونشير إلى توالي أحداثها وتسلسل فصولها الرئيسية ، شارحين ماغمض عند اللزوم ، ما يمكن .

كما عرفنا من قبل : إن « جلجامش » كان ملكاً على « أوروك » المدينة الواقعة في « كلداء » السفلى ، وقد اجتمع حوله عند ولادته جميع الآلهة ليهبوه أسمى الصفات وأثمنها : القوة والشجاعة والذكاء والجمال . فكان - كما قالوا - ثلاثة أثلاث : ثلثان إله وثلث إنسان . وكان الإله شَمَش (الشمس) يهتم به من بين جميع الخالدين . - ونعرف ان شَمَش كان يمثل العدالة أيضاً . أما أم « جلجامش » فكانت خاصة بالإله الشمس ولها قدرة على التنبؤ إلى ما يحدث في المستقبل - . وذلك لأن إله العدالة يعرف المستقبل ويشاركه في هذه المعرفة « حدد » رب العرافين وموحي التنبؤات .

(٢١) شخصية وهمية أوجدها المؤلف «سرفانتيس» الاسباني ، وذلك ليسخر من الفرسان الناهين ، وأوجده ليندد ويتنقد . «المعرب» .

(٢٢) شخصية أوجدها الروائي الفرنسي «بومارشيه» ، اشتهر بالذكاء والحيلة والتأمر والروغان والنجاة من كل مأزق وقع فيه ، فهو ساخر وناقد لايرحم . «المعرب» .

(٢٣) شخصية وهمية ، مغامر ، فخور ، لامع ، كافر ، خليع ، غاو ، ويمثل الحب المتنقل . «المعرب» .

(٢٤) شخصية أوجدها الكاتب الفرنسي له ساح ، شاب مثقف ذكي يعيش من مكاسب شريفة وغير شريفة ، ينخرط في مؤامرات عن قصد وعن غير قصد . «المعرب» .

جلجامش ومارد الأرز

انتصر « جلجامش » في كل معاركه ، ولم يخسر واحدة منها فذاع صيته وانتشر ذكره وعرف ذات يوم - ولاندرى كيف عرف - أنه يوجد في منطقة جبلية بعيدة جداً عن « أوروك » مارد ، يعيش وسط غابة - غابة من الأرز - وقد أقيم في قلب هذه الغابة محراب للإلهة « إيرنيني » . هذا المارد يسمى « حبابا »^(٢٥) ومهمته السهر على « إيرنيني » وعلى مصالحها لأنها هي التي وضعت في مكانه هذا . وهي إحدى الآلهة الثلاثة الكبار من الأرباب البابلية . أحدها « بل » أي المولى - وكان مولى الأرض - والاثنان الآخران من الثالوث الأكبر هما « أنو » الذي يحكم السماء و « إيا » الذي يأمر المحيط .

إذن ، مارد الأرز « حبابا » مخلوق « بل » ومثله وبطله ، ولكن الإله « شمش » يكرهه لأسباب نجهلها تماماً . وكان في مقدوره أن يصرع هذا المارد لو لم يكن سيد الآلهة ييسط عليه حمايته ، وان سطوته لاحد لها . فأحب شمش أن يقوم « جلجامش » بهذا العمل . ولذا أوحى للملك « أوروك » وأنبت في رأسه الفكرة والرغبة الممتلئين حماساً وجرأة ، فعليه أن يسافر ويغزو «بلاد الأرز» ويقتل المارد ، فيبعده عن الأذى لأنه كان يحرس المنطقة كلها ويدفع كل من يدنو منها .

« جلجامش » شجاع - كما نعرف - وصديقه لابل أخوه في السلاح « انكيدو »^(٢٦) لا يقل عنه شجاعة ولا قوة . ولكن شهرة المارد جعلت « أنكيدو » يرفض في بادئ الأمر أن يتبع مليكه محتجاً - في نوع من الاعتذار - ويقول بأنه دنا مرة من جبل الأرز وسمع صوت المارد ورأى النار والشرر المنبعثين من فيه ؛

(٢٥) اسمه في ملحمة «جلجامش» «حبابا» بالخاء . «المغرب» .

(٢٦) انسان ضخم يعيش مع الوحوش البرية ويأكل العشب ويرد معها الماء ، روضته بغني وقادته إلى «أوروك» فبارز «جلجامش» ، فانتصر هذا عليه . وأصبحا صديقين لايفترقان . «المغرب» .

واللهب الخارج قاتل . وهو وصف موجز نستطيع أن نستنتج منه بأن الجبل الذي يحرسه « حمبابا » ليس إلا بركاناً .

ولكن تردد « أنكيديو » لم يثن البطل عما عزم عليه ولم يوقف حماسه ، سيسافر وحده إن لزم الأمر ، لأن سيده شَمَش أمره بذلك . سيسافر لغاية واحدة : « حب اشتهار اسمه »^(٢٧) . ولقد عرضت المناسبة لكي يطير ذكره في الأفاق ولا يجوز أن يدعها تفلت من يده .

وأمام ثبات الملك وعناده رضح أنكيديو وصمّم على السفر معه . وهكذا استعد الانسان على عجل ، ووجّه « جلجامش » لإلهه شَمَش صلاة وجيزة ولكنها حارة ، رافعاً يديه نحو السماء بحركة طبيعية - وقد احتفظت آثار الشرق القديم بهذه الصورة - . ومن ثم انتقل إلى « مجلس شيوخ المدينة » . نصحه هؤلاء بعبارات مستوحات من يقظتهم : « أنت شاب وقلبك جريء وشهم ولكنك لا تقدّر مدى الأخطار التي ستحقيق بك . نحن نعلم من هو « حمبابا » ، إنه مارد رهيب ، ولكي تصل إلى تلك الاصقاع عليك أن تمشي عشرين ألف ساعة » . وقالوا له أشياء أخرى ، ولكن « جلجامش » لم يصغ إليهم بل صرّح بعناد : « سأسافر وسأقطع الأرز وسأجعل اسمي خالداً إلى الأبد » .

وأمام هذه الارادة القوية نكّس الشيوخ رؤوسهم وباركوا الملك وأعربوا بأن الشمس تود أن تحمي خادمها الأمين شريطة أن يقدم قرباناً لإله النهار عند كل مساء ويجب أن يكون القربان ماءً طاهراً . - تقدمت متواضعة ولاشك ولكن ماعسى مسافر يستطيع أن يقدمه وهو يضرب في الصحراء أو في بادية الشام ، إذ من المعقول ن نقتنع بأن منطقة الأرز التي يؤمها « جلجامش » هي لبنان أو الأمانوس تلك السلسلة الواقعة في سورية العليا كامتداد لجبال فينيقية . -

وقبل أن يخطو خطوة واحدة ، ذهب لوداع أمه كاهنة الشمس وهي المعبرة

(٢٧) لقد حدث مثل هذا لأبطال هوميروس : « بين أسباب عملهم ، الشرف له المقام الأول ، إذ كلهم متعششون للمجد والمديح » . « السيد كروازيه Croisen في كتابه الحضارة الهلينية وكذلك ملوك ايران القديمة التي تصفهم الشهامة . ورولاندا ، وونسفوكان يجب المجد حتى الجنون . « المؤلف » .

الماهرة للأحلام والرؤى . والأحلام هي الوسيلة الأكثر مباشرة - إن لم تكن الوحيدة - مع الآلهة والتي تسمح لهم أن يوصلوا رغباتهم التي هي كأوامر لبني البشر . فالعصر عصر بطولي عصر « جليجامش » .

كانت الأحلام تعرّف الناس بمراد الآلهة ، ولكن في العصر التاريخي كانت وسائل التنبؤات في « ميزوبوتاميا » كثيرة ومتنوعة . ولذا رتبوها وفسروا ارهاصاتهما وفقاً لقواعد خاصة وألفوا فيها رسائل قائمة بنفسها . وقد ترك لنا البابليون فصولاً كاملةً عنها . وليس على المرء أن يتعلق بكل الأحلام فحلم منفرد أو عاجل لا يسترعي الانتباه ، ولكن إذا تكرر الحلم أو بالأحرى حلمان متشابهان أو متممان لبعضهما - ولاسيما إن حدثا بتتابع فوري أو وقعا في ليلة واحدة - فإن ذلك يعتبر كإنداز يحسب حسابه ، كما نرى في سفر التكوين (التوراة) حلمي فرعون : سبع سنابل جاءت بعد سبع بقرات ؛ « فلأن الأمر مقرّر من قبل الله والله مسرع ليصنعه » . تكوين الاصحاح ٢٤ العبارة (٣٢) .

أما سرد سفر البطلين من « أوروك » فمبتور تماماً . ولكننا نعرف أن « أنكيدو » وقع في مرض مفاجيء ، مما أوقف الرحلة لأنه ظل طريحاً اثني عشر يوماً وهو بين الموت والحياة . ولما أبلّ حاسب نفسه ليعرف السبب وأخيراً عرف . فقال « لجليجامش » : « ذلك اننا عندما كنا في « أوروك » ترددت في السفر معك ، فأحب إليه أن يقتصر مني . » وهذا الإله الذي امتنع عن ذكر اسمه لم يكن إلا الإله الشمس « شَمَش » الذي عاقبه لأنه عارض مشيئته لأنه هو الذي أوحى بالفكرة لجليجامش .

وهكذا يبدو لنا أن مرض « أنكيدو » كان عقاباً أو على الأقل إنذاراً له . لقد كانوا يعتقدون أن كل مرض ليس الا قصاصاً على ذنب أو خطأ أو تقصير عن خدمة الأسياد - آلهة كلدة - ذوي النزوات . واجتاز « انكيدو » هذه التجربة وواصل الرفيقان طريقهما . وأخيراً وصلوا إلى أسفل الجبل جبل الأرز . فاعجبا بتلك الأشجار المنتصبه بفخارنحو

السءاء . ولكن الرهبة خالطت هذا الإعجاب ، فظننا انها وقعا في ضائقة فتوجهها بصلاة ، ولكن ليست للشمس هذه المرة بل للجبل نفسه . وحفرا حفرة ألقيا فيها قبضة من الدقيق وهما يقولان : « أيها الجبل هبى لنا أحلاماً . » وأثناء نومهما رأيا كثيراً منها وظنا بعد يقظتهما انها فهماها ولكن عبثاً . ولكن شمس - يبدو أنه كان قد تحلى عنهما - أسرع إلى نجدتهما . فأتار عاصفة هوجاء ألفت بالمارد أرضاً . فطلب العفو - ويظن ان « جلعامش » كان مستعداً للغفران - ولكن أنكيدو جدد الصراع وجعل المعركة تستخدم . وفي النهاية - رواية المعركة مبتورة - استطاع البطلان أن يقطعا رأس « حبابا » الرهيب .

هذه هي القصة ولكن بالاختصار ، وهي تملأ في الملحمة الشعرية ثلاثة أناشيد من اثني عشر نشيداً . ولانعرف الغاية والالمقصود من هذه القصة أو الرواية . ومن المحتمل أن الشاعر لم يحب أن يظهر هدفه ولذا امتنع عن كل شرح . أوريا اعتبر الشرح ناقلاً . أو لعل النص الذي يقدم لنا مفتاح الأحجية منتزع .

ومع ذلك نلاحظ بأن المشهد الذي توالى عرضه أمام أعيننا قد حدث في منطقة بعيدة جداً عن بلاد بابل وفي أرض جبلية مكسوة بالأشجار الضخمة . وهذا يجعلنا نقول انها تختلف اختلافاً كلياً عن مسقط رأس « جلعامش » . وعندما دخل - وهو أول انسان بابلي - تلك النواحي أخذته الدهشة العارمة ، وليست دهشة جنود فرعون عندما طردوا « الهيكسوس » من الدلتا ودخلوا سوريا غزاة بأقل منها .

بالحقيقة ، لا يوجد غابات في « كلدة » بل ستارٌ صفيق من النخيل يمتد على طول ضفاف الفرات ودجلة . بل هي بلاد تشكلت من الرواسب وكلها مستوية . وكما قيل من قبل : « خذ فأساً واحفر أينما شئت بين بغداد والبحر فلن تجد حصاة واحدة كبيرة مثل الجوزة » .

لم يغادر « جلعامش » مملكته الواقعة بمحاذاة الخليج العربي طلباً للشهرة والمجد - كما صرح - فحسب بل لأنه يريد أن يبحث عن شيء لا يوجد

في « ميزوباتاميا » وذلك الشيء هو الحجر والخشب ؛ خشب الأرز والصنوبر وكل خشب البناء المتوفر في سوريا . فمثله في ذلك مثل المصريين . فكما ان المصريين جلبوا الخشب من لبنان فان الكلدان فعلوا ذلك .

لقد كان « جلجامش » الأسطورة وربما أيضاً جلجامش التاريخ أول من حمل الفأس إلى تلك البلاد وأقام محراباً ليعبد فيه ويدعو « إيريني » . ومن الحق أن نقول : إننا لانعرف عن هذه الإلهة إلا الاسم ، ولكن إقامة محراب في وسط غابة تذكرنا كيف كان أنبياء اسرائيل يقيمون المحاريب في الأمكنة العليا ، وتذكرنا أيضاً بالكنعانيين كيف كانوا يتعبدون لبعل وعشوتوت في تلك البقاع . وإذا كانت المسألة - في أسطورتنا هذه - لاتتعلق بشجرة معرفة الخير والشر^(٢٨) فإنها في قضية غابة تقدم الضرر لبعض والخير لبعض ، الضرر أو الشر « لشمس » والخير « لبل » . ومن هنا يتولد لدينا انطباع من قراءة الأناشيد من ثلاثة إلى خمسة بأننا أمام مذهبين أو حضارتين : حضارة « ميزوباتاميا » وحضارة سورية أو مذهب السهل ومذهب الجبل .

« جلجامش » والثور السماوي

رأينا فيما تقدم الأسباب التي جعلت من « جلجامش » يرفض بشدة جميع طلبات « عشتار » . فعولت هذه على الانتقام الفوري لتلك الإهانة التي ألحقت بها . فصعدت إلى السماء لتطلب من أبيها « آنو » أن يخلق ثوراً ضخماً - وقد سُميَ الثور السماوي - فيهبط إلى الأرض ويدمر « أوروك » ويقتل السكان وفي مقدمتهم « جلجامش » .

ويجب على هذا الثور أن يحدث ضرراً فادحاً في المحاصيل وفراعماً هائلاً بين الاهلين . فهب « جلجامش » بمساعدة « أنكيدو » للدفاع عن مملكته وعن نفسه . وتمكن الاثنان من الإمساك بقرني الثور وشقاً جوفه واستخرجاً قلبه ووضعاه « أمام الإله الشمس » كما هو وارد في الاسطورة .

(٢٨) الشجرة التي أكلت منها حواء وأطعمت آدم . «المعرب» .

لقد وضع « جلعامش » قلب الثور أمام الإله شَمَش ليرهن عن خضوعه أو ليفي بنذره . ولكننا نرى في هذا الفصل بأن شَمَس لم يسرع في التدخل لمساعدة من يحميه . ويقال إنه انحرف عن ملك « أوروك » لتصديه « لعشتار » ولإهانتها . فيكون هو السبب غير المباشر ، فجلجامش يأتمر بأمرها .

عندما شرع علماء الآثار في هذه الدراسات وذلك منذ أربع وعشرين سنة قالوا بأن أسطورة « جلعامش » تشتمل على دين شَمَسِي . وبالفعل فإن بطلنا خادم مخلص للشمس وكذلك فإن الاسطورة مؤلفة من اثني عشر نشيداً والبروج التي تجتازها الشمس مقسمة إلى اثني عشر برجاً ، فكل نشيد مختص ببرج . أما الثور السماوي - الذي تكلمنا عنه آنفاً - والرجال العقارب الذين يحرسون الغروب (مغيب الشمس) فيمثلون برجين هما : الثور والعقرب . واتفاق « جلعامش » و « أنكيو » يذكرنا بالتوأمين « ديوسكور »^(٢٩) في ميتولوجيا الاغريقيين ؛ والإلهة « إيريني » التي تقوم بدور شبه محو - من الصعب تعريفه - لاتشبه هيلين أخت الديسكوريين التوأمين كاستور وبولوكس ولدي زفس^(٣٠) .

ويضاف إلى هذه التقريبات تقريبات أخر كتب عنها الكثير من المؤلفين - وكما أعتقد - وسيكتوبون ، لأنها غير جامدة . وهنا نظرية أو مقصد قد أهمل نهائياً ، وهو كما جاء عن « بوشه ليكرك » Bouchel Leclerc : « يجب أن يكون هناك أسباب آخر لتلك الظنون حتى نتقبل كل ماوصف به أبطال الملحمة الشعرية ، ولاسيما ما تحدث به الشاعر عن البروج الاثني عشر . » ومع ذلك يجب أن نضيف : إذا كانت أصول ملحمة « جلعامش » ضاعت - كما يقال - في ليل الزمان ، فإن البروج من اختراع أقل قدماً منها .

(٢٩) ديوسكور dioscures توأمان متصلان دائماً ويرمزان إلى الصداقة وهما كاستور Castor وبولوكس Pol- lux ابنا جوبيتر وهيلين أختها « المعرب » .

(٣٠) إله الآلهة : زفس عند الاغريق وجوبيتر عند الرومان . « المعرب » .

وليس المقصود من سرد رواية بسيطة واحدة - كما رأينا - لأن هذه الملحمة لاتستهوي الرواة البابليين ولا من يصغون إليها فحسب بل كان يستهويهم ضربات سيف هائلة والقيام بسفر طويل ، بل نحن أمام قصة شرقية ليست كقصص ألف ليلة وليلة بل هي من معدن آخر ، إنها قصة اسطورية فلسفية وكلما أوغلنا في تحليلها كلما حاسبنا أنفسنا وقلنا من هذه الناحية يجب أن ننتقل لابل من تلك يجب أن نبحث .

ما إن سقط الثور السماوي صريعاً حتى ارتقت الإلهة « عشتار » أسوار المدينة . ومن هناك وأمام الشعب المتجمع في الساحة لعنت « جلجامش » جهاراً لأنه - في نظرها - هو المجرم الحقيقي في قتل الثور الذي خلقه إله السماء خصيصاً للانتقام لها . وكانت هذه اللعنة بداية مصائب البطل وعلامة انحطاطه .

موت « أنكيديو »

وفي اليوم التالي لذلك المشهد المأساوي المفجع ، رأى « أنكيديو » حلاًماً . فأسرع يقصه إلى صديقه - لأنه كان في حاجة ماسةً إلى من يعبره له - . لقد رأى في نومه أنه حضر مجلس الآلهة وكانوا أربعة : « آنو » و « بل » و « إيا » و « شمش » . وسمع بكل وضوح « آنو » يقول « لبل » : بما أن « جلجامش » و « أنكيديو » قتلا الثور الإلهي وقطعا رأس ماردا الارز يجب أن يموتا موتاً . وأجاب « بل » : « يجب أن يموت أنكيديو حتماً » وعندئذ تدخل « شمش » في النقاش وسأل « بل » : « أليس بأمرك قتلا الثور والمارد » . ولكن « بل » لم يرد على هذا السؤال بل أعلن حكمه بلهجة قاطعة : « سيموت انكيديو حتماً » .

وتنقصنا نهاية الحلم - وهذا مما يؤسف له - ولكن ما بقي يكفي لمعرفة كم كان الآلهة منقسمين على أنفسهم وكم كانت شورا هم صاحبة . ومن هنا نفسر أن الأشياء التي تحدث على الأرض ليست كلها لخير العالم . فالبشر يذهبون

ضحايا معيَّنة أو على الأقل يخضعون - إن أرادوا أو أبوا - لاختلافات مساوية . وبالرغم عن جميع قواعد التنبؤ التي تكلمنا عنها من قبل والتي نتائجها في جميع الحالات محيية للأمال لأن مسلك الآلهة يظل أو يبدو مغلقاً لا يستطيع أحد أن يتطرق إليه بمفهوم . وعندما تتوالى الخيبات ويكثر الغش لا بد من الخضوع والاستسلام . وإن حاولنا أن نجد مخرجاً لما تريده السماء أو أن نعلل أوامرها لا بد لنا من أن نعرف بأنه توجد قوة وإرادة أعظم من قوة المخلوقين وإرادتهم . وهذه القوة لا تتزعزع عن تحقيق ماتريده ، وهي « القضاء » .

لو قال الإله « بل » يجب أن يموت « أنكيديو » لا « جلجامش » فما كان معنى هذا ؟ كان معناه أن « جلجامش » لن يموت أبداً أو أنه لا يموت في نفس الوقت الذي يلفظ « أنكيديو » فيه روحه . هذا ما كان يدور في خلد « أنكيديو » عندما قص حلمه . وكان على « جلجامش » أن يفهم بأن موته قد أُجل .

وبعد اثني عشر يوماً ومن جرّاء مرضٍ غامض - ربما كان من نوع مرضه في الصحراء - أسلم « أنكيديو » روحه ، كما قررت الآلهة .

شعر عندئذ « جلجامش » بحزنٍ عميقٍ جداً ، حزنٍ كاد يمزقه . وفي الأسطورة نشيدٌ بكامله مملوء بالنواح والأنين أو بالأحرى بالعويل . ليس لأنه أصيب بأحب مخلوق إليه وبأصدق رفيقٍ له وبأشجع أخٍ في السلاح ، بل لأنه أصيب وهو في ذروة عظمته وأوج قوته . فماذا يفعل ؟ وهل يستطيع أن يفعل شيئاً وقد حُرّم من سندٍ كهذا . لم ير « جلجامش » أحداً يموت من قبل ، فعلم ان هذا المصاب الجلل هو من نوع الكشف . لقد تيقن أنه سيرقد يوماً ما بدوره ولا ينهض من رقدته قط . وهذا اليوم سيأتي إن عاجلاً أو آجلاً . ولقد ملأته هذه الفكرة رعباً ويريد بكل ثمن أن يتفلّت من هذا الحكم ، إن ثلثه إله فعليه أن يطلب ذلك الثلث الذي ينقّصه ليصبح من الخالدين ولو جاب العالم حتى طرفه .

جلجامش يفتش عن نبتة الحياة

سمع « جلجامش » بأن جده « أوم نابيشتي » لم يموت وأنه مُنح الخلود بعد الكارثة التي سموها الطوفان وذلك لاستقامته وتقواه . إذن سيقصد هذا الجد الشهير والسعيد ويطلب منه « سر الحياة الأبدية » . فنراه يخرج من مدينته « أوروك » وحده في هذه المرة ويأخذ طريقه مجدداً لايلوي على شيء .

مشى في السهل ، وفي نهاية المطاف وبعد أن تعرّض لشتى الأخطار التي زرعت في طريقه ، وصل إلى أسفل جبل - ليس بجبل الأرز- يسمى « ماشو » .

ظن كثيرون بأن « ماشو » هو جبل « أرمينية » الذي يسميه الجغرافيون القدامى « ماسيوس » والذي عرف فيما بعد ، في عصور أقلّ قدماً ، باسم « ماسيس » ، فإذا صح هذا الفرض يجب أن نقبل بأن « جلجامش » سلك طريق الشمال . ولكن لا بد من التردد أمام هذا الفرض ، ولا سيما إذا ما عرفنا كم هي واسعة المساحة الاسطورة وكم هي غنية في إقامة الأشرار المختلفة ، وكم هي سريعة العطب تلك الفروض والتخمينات التي لاتستند إلا على جناسات بسيطة (ماشو ماسيس ماسيوس) ولا سيما إذا كان الحديث كالذي نحن بصدده عبارة عن ألفاظ ذات مقطع واحد . وهنا نستطيع أن نقدم اقتراحاً مبنياً على اللغة البابلية . فكلمة « ماشو » معناها « التوأمين » وبما أنه يوجد في الشرق جبالان متوازيان وبالأحرى توأمين هما : سلسلة جبال لبنان الغربية وسلسلة جبال لبنان الشرقية ، نستنتج أن « جلجامش » أخذ باتجاه الغرب ليصل إلى ما يبدد مخاوفه .

والمؤكد ، إن بطلنا وصل إلى أسفل جبل فيه زوجان من البشر غريبان لهما جسمان طويلان ويسميان « البشر العقارب » ومهمتهما حراسة مدخل الطريق التي تسلكه الشمس كل مساء عندما تختفي وراء الأفق . من الواجب أن لا يضيع عن تصورنا بأن البابليين والآشوريين

والسومريين والأكاديين كان لهم مفهوم عن ذلك العالم - عالم ماوراء الأفق - يختلف تماماً عن مفهومنا ولا علاقة البتة بين الاثنين . ففي عصر « جلجامش » كانوا يرون بأن العالم عبارة عن سهلٍ رحيب جداً يمر فيه نهران عظيمان ويحده من جميع جهاته جبال شامخة هي : القوقاز وطوروس وسيناء وغيرها وعلى قممها تستند قبة السماء الصلبة أو كما نقول : السموات - وكل مساء كانت الشمس تختفي من باب مفتوح مخصص لها في الجبل الغربي وتمشي طيلة الليل في باطن الأرض لتعود في اليوم التالي وتظهر من باب آخر معاكس هو باب الشرق .

إذن ، « جلجامش » هو الآن في أسفل جبل « ماشو » وجهاً لوجه مع « العقارب البشر » الذين يجرسون باب الغرب . فقصّ عليهم مصائبه ونحوه ورجاهم متوسلاً أن يهدوه الطريق التي يجب أن يسلكها ليصل إلى هدفه . وحاول حراس « ماشو » أن يثنوه قائلين : « لا يوجد طريق وحتى لو أفضيت إلى شاطئ البحر فكيف تعبره؟ لم يستطع أحد من قبل أن يجتازه إلا شمس (الشمس) . » ولكن لم يكن « جلجامش » بالرجل - كما نعرف - الذي يصغي لنصائح الحذر . ولذا تابع سيره مواجهاً كل خطرٍ في شعاب الجبل ومنعطفاته ، وبعد أربع وعشرين ساعة - أو بالأصح أربع وعشرين ساعة مضاعفة - أصبح في الجانب الآخر على شاطئ محيط يلف العالم وفي بلاد العجائب حيث الأشجار من لا زورِدٍ وثأرها من عقيق ، إنه في حديقة فيحاء .

كانت هذه الحديقة لامرأة أو بالأحرى لإلهة ولكن من مرتبة ثانوية تحمل اسماً مزدوجاً « سيدوري - سابيتو »^(٣١) Sidori - Sabitou . ولقد فسّر هذا الاسم من قبل بكلمة عربية مشابهة « صبية » وبما أن الاسم العربي هو بالحقيقة « تسابيتو » وليس سابيتو فيكون هذا التقريب لاقيمة له . ثم قرّبوا بعد ذلك « سابيتو » من اسم بلاد « سبأ » التي عرفت جيداً بملكها المعاصرة لسليان . فتكون « سابيتو » بمعنى « السبئية » . فمن هنا - إن أخذنا بهذا القول البعيد

(٣١) يبدو ان المؤلف لا يعرف العربية . فلا يوجد في لغتنا « تسابيتو » ولكن « صبية » وهي قريبة جداً مما فسّرت به الكلمة . « المغرب » .

عن الصحة - نرى أن « جلعامش » سلك طريق بلاد العرب الجنوبية مفتشاً عما يحقق أمله . ولكننا نعرف الآن مامعنى هذه الكلمة على الوجه الصحيح ، وذلك من ترجمة حثية يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق. م ومعناها « التي تسكب الخمر للشاربين » . أي الساقية إذا كان لهذا الاسم مؤنث^(٣٢) .

ورأت « سيدوري سابيتو » جلعامش يتقدم نحوها بمظهر المتوعد فأخذها الفزع ودخلت البيت وأوصدت الباب بالمزاليح الصلبة . ولكن عندما سمعت صوت البطل وكان عذباً ناعماً رضيت أن تفتح الباب وتصغي لقصته . ولما انتهى من سرد روايته شعر بمفاجأة مؤلمة وشديدة الوقع . قالت له الجنية : « إن الحياة التي تفتش عنها لن تجدها قط ، فالآلهة خلقوا البشر ليموتوا لا ليخلدوا ، أما الحياة فقد أمسكوها بين أيديهم ، فعليك إن أردت أن تستفيد مما منحوك إياه أن تتنعم في نهارك وليلك » .

ومع ذلك لم يرضخ « جلعامش » بل ألح طويلاً وجادل ، ولما تعبت « سابيتو » من نقاشه وعناده أرشدته إلى انه يوجد على مسافة قصيرة من حديقته غابة فيها بحار يجيد قطع الأشجار كما يجيد بناء السفن ، فربما اقتنع بمساعدة المسافر في مشروعه بالرغم من إنه عنيد وجريء .

اتجه « جلعامش » عند ذاك نحو الغابة . فالتقى بنوتي شرس الطبع عديم التهذيب . ولكن ماعتم ملك « أوروك » ان أفنعة ولكن كيف ؟ - لاندرى - فقطعاً مئة وعشرين شجرة وبنيا مركباً لينتقلأ معاً - « جلعامش » ورفيقه الجديد - إلى « فم الأنهار » . هذا الاسم الذي أعطوه لذلك الفردوس الذي يسكنه الجد الخالد من عهد الطوفان .

لقد قارنوا لقاء « جلعامش » و « سابيتو » بلقاء « أوليس » و « كاليبسو »^(٣٣) Calypso التي تروي « الأوديسا » قصتها في نشيدها الخامس .

(٣٢) لهذا الاسم مؤنث، والساقية قريبة من سابيتو، وهذا هو الوجه الصائب . «المغرب» .

(٣٣) جنية ومليكة جزيرة «أوجيخيا» في بحر «إيونيين» استقبلت اوليس الغريق واحتفظت به سبع سنوات . «المغرب» .

ونتساءل عند هذا : هل كانت الملحمة البابلية معروفة لدى العالم الاغريقي ؟ أو هل توصلت بعض فصولها - في وقت مبكر - إلى « إيونيا » من قبل الحثيين ؟ نحن نعلم أن الحثيين كانوا يعرفون القصة بكاملها . وبما إن الإيونيين جيران الحثيين لصقاً فربما أخذوها عنهم .

الحق يقال : يوجد العديد من الصفات المتشابهة أو المشتركة بين القصتين . فكاليسو ساعدت « أوليس » بنفسها في بناء مركب - وأعلى الأقل في بناء طوفٍ - وقدمت له الأدوات الضرورية . إذ أرشدته إلى الغابة الواقعة في رأس جزيرتها حيث قطع العشرين شجرة اللازمة لبناء السفينة التي ستقده إلى بلاد « فياسيان »^(٣٤) . ومع ذلك فإن القصتين لا تبرزان إلا مفارقات ضئيلة . فإذا كانت « سايتو » لاتشجع جليجامش ليقينها أنه لن يصل إلا إلى الاخفاق فان « كالييسو » تهب لضيفها الخلود شريطة أن يبقى عندها - كما فعلت « عشتار » أو أرادت أن تفعل مع « جليجامش » . قالت « كالييسو » : « إنك لاتعلم ماذا سيحيق من ندم وأسف قبل أن تصل إلى موطنك ومسقط رأسك . يجب أن تبقى إلى جانبي فتحرس هذا المسكن وبعد ذلك تصبح إهاً . » ولكن « أوليس » خاف من سوء العاقبة فرفض بكل عناد « الطعام الشهي »^(٣٥) الذي قدم له كما رفض « جليجامش » جميع هدايا « عشتار » . وما كان « أوليس » إلا جندياً يود أن يعود إلى بيته بعد نهاية الحرب ، بينما كان « جليجامش » رجلاً يخاف الموت ويريد أن يتملص منه . فإذا كانت الأحداث في كلتا القصتين تتشابه في بعض التفاصيل ، وإذا كان التشابه مدهشاً - كما يبدو - فإنها في قرارة أعماقها تتباعد بشكل قطعي .

وبعد أن بذل « جليجامش » جهداً جهيداً تحفه الأخطار - الفصل قليل التشويش وكامل - وصل فجأة إلى حضرة جده الذي يعيش مع زوجته منذ آخر عهد الطوفان . لقد استقبل « أوم نابيتشي » سبطه برحابة صدر ولكنه عندما

(٣٤) شعب خيالي كان يسكن جزيرة «سكيريا» في بحر «إيونيين» . «المغرب» .

(٣٥) طعام يجعل من آكله خالداً . «المغرب» .

اطلع على الغاية التي يسعى إليها اعلمه بدون موازنة أنه يجب أن يُقلع عن عزمه - إذ لا أمل يرجى - ولكي ينهي نصيحته في الافئاع ، أمره أن يجلس ولكن ليأخذ حذره من أن يغفو . ولكنه ما إن جلس حتى استسلم لنوم عميق . ولما أستيقظ وعاد إلى نفسه سمع جده يقول بنبرة متهكمة ومؤثرة : « رأيت أنك لست إلا إنساناً . »^(٣٦) .

حاول الجد تعزية المسكين ولكن عبثاً . وعندئذ أراد أن يقدم له - على الأقل - تعويضاً عما عاناه . فأخبره أنه يوجد نبتة « تُعيد الشيخ إلى صباه » ولكنها لا توجد إلا في أعماق البحر ؛ وعلى « جلجامش » عليه وحده أن يقطع غصناً من هذه النبتة إذا لم يضعف فؤاده . وما إن سمع هذه الكلمات حتى أسرع فربط إلى رجله حجرتين ثقيلتين وغاص في الأعماق ولما رأى النبتة العجيبة انتزع منها غصناً ثم فكَّ الحجرتين وصعد إلى سطح الماء .

وفكرة وجود نبتة تجدد الشباب وتمدد الحياة إلى الأبد منتشرة بين الناس . وهذا أمر طبيعي . فطالما توجد نباتات تشفي جميع الأمراض التي تصيب الأجسام ، لماذا لا توجد نبتة نادرة ، من الصعب الوصول إليها ، تشفي من أكبر الأمراض : الموت .

الأفعى تسلب نبتة الحياة من « جلجامش »

وأخيراً ، هاهي النبتة الثمينة بين يدي « جلجامش » . لقد شقي كثيراً ولكنه أثيب الآن على ما بذل من جهود . فما عليه إلا أن يعود أدراجه إلى « أوروك » .

وعندما يدخل بيته سيأكل بعض أوراق الغصن السحري فتعود إليه - حسب أمنيته - قوة شبابه .

(٣٦) كما يقول التلمود : إن آدم قبل سقوطه كان يشبه الله تماماً حتى ان الملائكة خلطوا بينها . وبعد أن تهبوا ليغفوا نشيدهم في تمجيد الإنسان ، إذا الله يسقط على مخلوقه نوماً عميقاً ، عند ذلك عرف الملائكة خطاهم . « المؤلف » .

ولكن ماذا أكل - وبالأسف - وهو لم يغادر بعد بلاد « فم الأنهار » . لقد حدث - ويجب أن يحدث يوماً ما حدث - وهو في خاتمة مطافه أنه نزل إلى عين باردة ليروي غليله - كان اليوم حاراً جداً - وبينما هو يشرب ، شمّت حية رائحة النبتة - وكان « جلجامش » قد تركها جانباً - فانسابت بين الصخور واستولت على الغصن وعادت إلى مخبئها .

ومنذ ذلك العهد ، تستطيع الحية - بفضل سرقتها - أن تتجدد فهي تغير جلدها كل سنة ، وبذلك تؤمن لنفسها شباباً جديداً . اما الانسان - والمقصود « جلجامش » فقد حُرِم من طَلْسَمه ولذا سيقى خاضعاً للقحول والهرم وأخيراً الموت . وحية ميتولوجياً « بابل » لا تتكلم مثل حية التكوين^(٣٧) ولكنها تتصرف بسرعة فائقة تاركة « جلجامش » وراءها يعرض يديه حسرة . لقد أصبح خالي الوفاض ، وذهبت جهوده هباءً في هواء .

ومن المفيد أن نقرب هذه القصة من قصة كتبها « فولتير » . والاختلاف بينهما قليل . قال : يروي بعض الآسيويين (الهنود) بأن الله لما خلق الانسان أعطاه وثيقة مكتوبة، على رِقٍ جميل، فيها سر الخلود . فحملها على حماره وذهب بجوب العالم . وفي الطريق صادف الحمار الحية وسألها إن كان يوجد في الجوار نبع يستطيع أن يشرب منه . فقادته الحية بكل لطف إلى عين . وبينما كان الحمار يشرب والانسان بعيداً سرقت الحية الوثيقة وقرأت السر - والسر هو تبديل الجلد - وهذا ما جعلها خالدة . وحسب الفكرة الآسيوية احتفظ الانسان بجلده فكان عرضة للموت^(٣٨) .

القصتان - قصة البابليين وقصة فولتير - غير متشابهتين . ففي ملحمة « جلجامش » لا يوجد حمار ولانبتة بل عقار وفي قصة فولتير لا يوجد نبات عجيب . لاشك ان فولتير سمع من بعض القصاصين الشرقيين - وربما كان

(٣٧) الحية التي أغرت حواء بالأكل من الثمرة المحرمة . «المعرب» .

(٣٨) أنظر في الحوار ذي العنوان «العباد» أو مدائح الله «١٧٦٩» وانظر أيضاً، المدخل في المحاولة على العادات . «المؤلف» .

فارسيًا - . وإذا ما صدقنا قوله فالقصة هندية . ولقد سألت الهنود عن هذه القصة فأنكروها البتة . ثم ماذا كنا نعرف عن الهند وعن أدب الهند عندما كتب فولتير ما كتب ؟ ربما كانت هذه القصة تعود إلى عهد قديم جداً ، جاءت بها الروايات المنقولة فاحتفظ بها وعليها مسحة من مغامرات « جلجامش » .

وما كان ملك « أوروك » بالبطل الوحيد الذي حاول اكتساب الحياة الابدية . فهناك غيره وغيره ولاسيما « آدابا » و « إيتانا » . فقد كانا أشجع وأشد^(٣٩) . لقد صعدا إلى السماء لينتزعا من الآلهة سرهم - سر الخلود . ولكنهما فشلا كما فشل « جلجامش » لأسباب أو لسبب واحد . هذا السبب كان كافياً . ونستطيع أن نوجزه بكلمة « حسد الآلهة » .

لم يكن - كما يبدو - في معتقد « ميزوبوتامبا » القديمة إلهة تجسد الحسد مثل « نيميزيس »^(٤٠) الاغريقية . مع أن الآلهة - كما عرفنا - لم يكونوا خالين من هذه العاطفة . فهم يقاومون بعضهم البعض ويعلو صراخهم في مجالسهم الاستشارية فيثورون ويتخذ كل منهم وجهة نظر ولاسيما في علاقاتهم مع البشر ، البشر الذين خلقوهم لخدمتهم لا لشيء آخر . والمكافأة الوحيدة لهم على تلك الخدمة « شيخوخة سعيدة » . فلاخلود . ألم تعلن الجنية « سابيتو » دون موارد عند بدء حوارها مع « جلجامش » : « الحياة التي تنشدها لن تجدها قط » هذه هي الحكمة والمغزى من الملحمة التي عُثِرَ عليها منذ مئة عام في أطلال قصر « نينوى » .

وبما أنه يوجد نسخ عديدة لهذه الملحمة الشعرية ، فإن نسخة « أشور بانيبال » هي الأتم أو الأقل بترًا . أجل لقد عُثِرَ على ما هو أحدث منها وفيها من الفوارق والمعارضات ما فيها مما يجعلنا نقول بأن الأسطورة تعرضت عبر القرون إلى تحوير وتصحيف . وكنا نود أن نعثر على نسخة يعود تاريخها إلى عهد « نبوخذ نصر » مثلاً أو إلى عهد السلوقيين . ولكن أتى لنا هذا .

(٣٩) انظر ماتقدم . « المؤلف » .

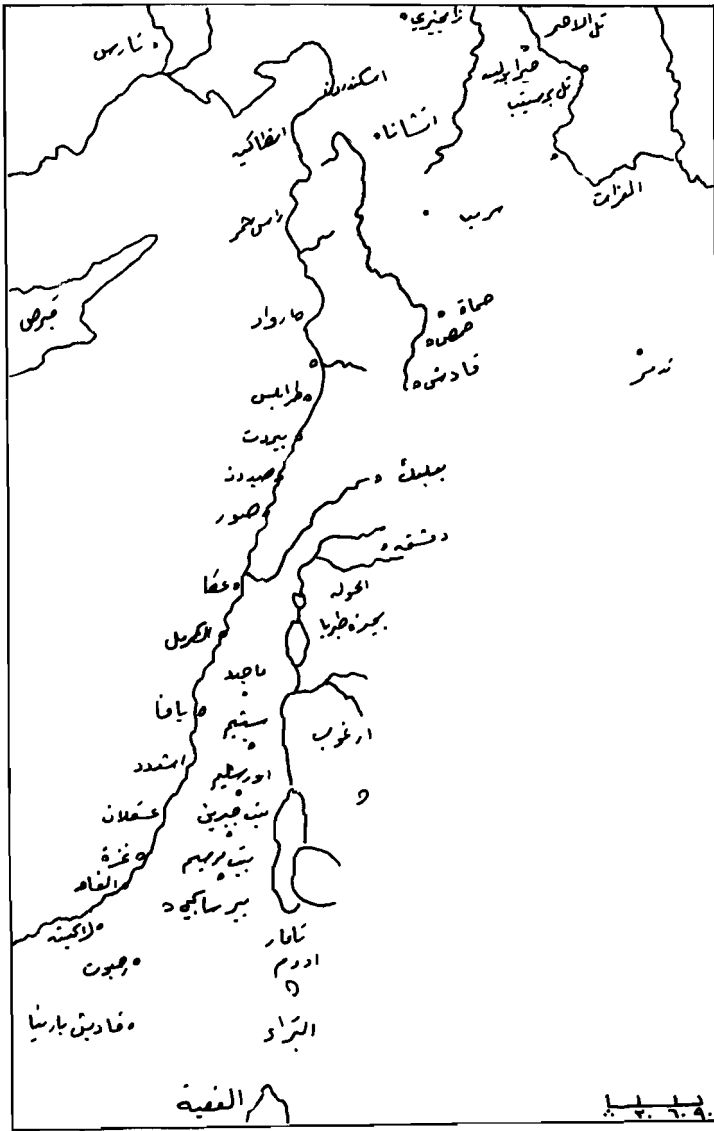
(٤٠) ربة الانتقام عند الاغريق . « العرب » .

فلنبقَ إذن في القرن السابع ق. م . وعلينا أن نسلّم بحق بأنه في ذلك الزمن العريق في القدم كان للبابليين وللآشوريين - ولدى كثير من الشعوب - نفس الخاطرة التي كانت لأسلافهم القدامى هي : التشاؤم والمادية . لقد فكروا في هذه المسألة الخطيرة ولذا نستغرب عندما نقرأ هذا الرأي في مؤلّف شاخ الآن اسمه « التاريخ القديم للشرق التقليدي » « لجاستون ماسيرو » . يقول : في « كلدّة » كانت مشاكل الحياة الحاضرة تشغل عقلية الإنسان تماماً فيحاول أن يقوّمها ويجعلها خاضعة لشروط الحياة الآتية ولكن ضيق وقته وتفكيره في اكتساب العيش يمنعه من التفكير والتأمل » .

يريد « ماسيرو » أن يقول بأنه كان للمصريين القدماء حياة أنعم وأهدأ ، هذه الحياة تحوّلهم أن يلهوا وأن يغوصوا أكثر في تأملاتهم . ولكن في الواقع ، لم تكن حياة الكلدان بالقاسية ، فأرضهم غنية جداً وكان لهم لهوهم وفراغهم فيستطيعون أن يفكروا أثناء قرون وقرون . لاشك ولا ريب بأن « نينوى » و « بابل » سقطتا في وقت مبكر وهذا ما جعل مفكّري ذينك المركزين أن يعيدوا النظر في عقيدتهم .

إننا واثقون بأن شعوباً أخرى ستأخذ في يوم ما هذه المسألة - مسألة الخلود - وتوسعها بحثاً وتدقيقاً وربما أعطت جواباً يختلف تماماً عن جواب الجنية « سايتو » « لجلجامش » ملك « أوروك » .

الأساطير الكنعانية



خريطة تيفيك وفلسطين

اكتشاف رأس شمرا أسطورتا « دانييل » و « قيريت »

من بين الحفريات الأثرية الكثيرة التي جرت في سوريا خلال عشرين عاماً من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٩ ، كانت حفريات « رأس شمرا » هي الأهم بفوائدها ونتائجها .

في سنة ١٩٢٨ ، جذب الانتباه اكتشاف مفاجيء ظهر في ذلك المكان من إقليم « اللاذقية » التي تواجه « قبرص » . فقام السيد كلود شيفير عام ١٩٢٩ بتنقيباته المنظمة فوق على ميناء كبير يعود تاريخه إلى الألف الثانية ق. م . - مرفأ أوغاريت .-. لقد وصلت هذه المدينة إلى ذروة توسعها في عهد الملك « نيقهاد » في منتصف القرن الرابع عشر ق. م . ولكنها سقطت ودمّرت سنة ١١٠٠ من قبل غزاة جاءوا من الغرب والشمال من جزائر بحر « إيجه » ومن الأناضول . ومنذ ذلك الوقت ظلت دائرة ولم تنهض .

لم تقدم أطلال « أوغاريت » العدد الكبير من الأدوات ومن الآثار المصورة فحسب بل قدمت بقايا مكتبة - كمكتبة نينوى وبابل - تشتمل على لوحات مشوية من الفخار وقد غطى أحد وجهيها علامات سموها اصطلاحات بالكتابة المسامرية . ولكنها تختلف كثيراً عن الخط المسامري المعروف فإذا كانت كتابة « ميزوبوتاميا » تشتمل على مئات من العلامات تمثل كل واحدة منها كلمة

أو مقطوعاً فان نصوص «رأس شمرا» لاتحوي الا على ثلاثين علامة . ولذا وجدنا أنفسنا أننا أمام كتابة مؤلفة من حروف أي نحن أمام « ألفباء » حقيقية^(٤١) .
لقد كتبت هذه الوثائق بلغة واحدة ولا ترجمة لها ، وهذا مما جعل فكَّ معمياتها أمراً صعباً للغاية . إذ من المعلوم ان لغة مجهولة تكتب بحروف مجهولة تظل مستحيلة المثال . إذن علينا أن نعرف ماهية هذه اللغة وهل كانت معروفة من قبل أم لا أو على الأقل أن نفهم - إن لم تكن لغة قائمة بنفسها - اللهجة التي ترد في لغات معروفة .

وبعد سلسلة من التلمس والتقطيع (تقطيع الكلمة ومقارنتها مع غيرها) توصل علماء الآثار إلى قراءة تلك اللوحات عام ١٩٣٠ . إذ كما قلنا آنفاً لم تكن تلك النقوش مزدوجة أو مثلثة اللغات^(٤٢) . ولم تكن قراءتها بشكل ناقص أو مقارب ولكنها كانت دقيقة وصائبة دقة الرياضيات وصوابها . فظهر بكل وضوح انهم يتعاملون مع لغة سامية لها وشائج القربى مع العبرية^(٤٣) ؛ ولذا نستطيع أن نسميها بالفينيقية الأولى .

ومن بين تلك اللوحات عثروا على بيانات خاصة ؛ منها ثلاث رسائل موجهة إلى ملكة أوغاريت نفسها ومنها نصوص محاسبة تتعلق بتجارة الزيت والخمور والارجوان ومنها رسالة صغيرة تتضمن معالجة الحيوان . وكذلك على سلسلة من نصوص طويلة ، تشتمل كل واحدة على شعرٍ له صفة الميتولوجيا أو الأسطورة .

(٤١) إذا كان الاوغاريتيون يكتبون لغتهم الخاصة بهذه الألفباء التي استخرجوا حروفها من البابلية . وكانوا يستعملون اللغة البابلية ولاسيما في تسجيل العقود . «المؤلف» .

(٤٢) أب كتبت بلغتين أو ثلاث . «المعرب» .

(٤٣) لاقربى بين هذه اللغة واللغة العبرية .

قصائد « رأس شمرا »^(٤٤)

إن القصائد التي عثر عليها - ليست سليمة فهي مقطوعات أصابها بعض التلف - هي من نوع عنيف جداً . وتحمل كلها طابع القدم السحيق . وإذا كانت اللوحات الفخارية التي نقشت عليها (القصائد) ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م فإننا واثقون من أنها قبل أن تثبت على الشكل الذي وصلنا قد تناقلتها الأجيال سواء رواية أو كتابة بطريقة مالميس ألفباؤها معروفاً .

ليس لأبيات القصائد قافية بل إنها تسير اثنين اثنين وذلك للتعبير عن فكرة واحدة - بعبارة أو بعبارة مختلفة - . ولانعلم كيف كانوا يلفظون طالما ان الحروف الصوتية غير موجودة^(٤٥) ولكننا نستطيع ان نعيد اللفظ إلى حالته الطبيعية وذلك بالمقارنة مع اللغات الأخرى التي هي من نفس الأسرة (أي السامية) . وروح القصيدة هو الوقع وليس القافية . ولانخطيء أبداً إذا ما طبقنا على هذه الأناشيد الفينيقية رأي « رينان » في تعريفه الأناشيد العبرية . قال : « جعبة من السهام الفولاذية وحبل مفتول بشدة وبوق من نحاس أحمر يشق صوته الفضاء بعلمتين حادثين أو ثلاثة » . وكانت هذه القصائد تغنى أو تُوقَّع في الحفلات التي يقيمونها إحياءً لذكرى معارك الآلهة أو في الانتصارات أو الهزائم .

وفي العصر الروماني كانوا يقولون بأن « فينيقية » أنجبت منذ زمن حرب « طروادة » فلاسفة ومؤرخين . ولكن لانعلم في الوقت الحاضر ما يقصدون بقولهم هذا ، وما الغاية من عبارة « فلاسفة ومؤرخين » . إذ ليس المعنى واضحاً . وهل القصد الشرق أم الشرق القديم ؟ ولكن من المؤكد الثابت ان فينيقية قدمت - قبل حرب طروادة - شعراء عثر على مؤلفاتهم في صور وصيدا المواطنين الخالصين للكنعانيين ، وفي انقاض مدينة في سوريا العليا أسستها صور وصيدا وهجرها أهلها منذ ثلاثة آلاف سنة .

(٤٤) نشر أكثر قصائد رأس شمرا في مجلة «سوريا» ابتداءً من المجلد الثاني عشر سنة ١٩٣١ . وكان لها شروح لائحصى . «المؤلف» .

(٤٥) في لهجة أوغاريت لاجود للحروف الصوتية ولاسيا الألف مثل لهجة فينيقية . «المعرب» .

« إيل »^(٤٦) أبو الآلهة

كنا نعرف قبل ١٩٣٠ أسماء بعض آلهة فينيقية ولاسيما «بعل» وما اشتق منه من أسماء مثل بعل زبوت^(٤٧) أو بعل فيغور ، ولكننا نجهل تاريخ هذه الآلهة أو أساطيرهم أو شخصياتهم ، أما اليوم ومع نهار جديد فقد ظهر لنا أشياء وأشياء ، بالرغم من ان النور الذي يضيء لنا السبيل ، لم يزل في أكثر الأحيان باهتاً .

على رأس الألوهية يقوم الإله «إيل» ومعنى اسمه إله لاغير أما المعنى الحقيقي أو الاشتقاق الصوتي هو ولاشك الأول^(٤٨) القوي . وبالفعل هو الإله الأكبر وأبو بقية الآلهة وأبو البشر وينعتونه بخالق العالم . مع أن النصوص التي وصلتنا لاتقول هذا حتى ولاتلميحاً . ان هي إلا صفات موجزة جرت على ألسنة القدماء . ولانستطيع ان نصعد بالقول إلى أكثر من هذا حتى ولا إلى الطوفان .

إن الوثائق - التي نحن بصدددها - تُبرز لنا عالماً قد رُتب ترتيباً رديئاً . إذ نرى ان هؤلاء الآلهة والإلهات في صراع دائم ، فهم يتشاجرون دائماً ، وكثيراً ما ينتهي صراعهم بمذابح أو باغتيالات .

أما الإله « إيل » فبالرغم عن مركزه السامي لايقوم بأي دور نشيط ، فهو دائماً بمعزل عن الأحداث ولايتدخل إلا اذا أجبر أو اضطر . فهو بالحقيقة إله شيخ هرم ، تنقصه القوة المسيطرة ، وهو يشبه الإله المصري « راع » . لايجب الحرب ولاتستهويه المعارك . فليس هو الذي صرع «تنين»^(٤٩) و«ليفانان»^(٤٩)

(٤٦) قرب إيل من إله ، ثم أنظر إلى جبرائيل واسماعيل وعزرائيل ودانيال وغيرها من الأسماء المنتهية بإيل . «المعرب» .

(٤٧) اسم شيطان ويعتبر في العهد الجديد رئيس الأرواح الخبيثة أي ابليس . «المعرب» .

(٤٨) قرب كلمة «إيل» من أول - «المعرب» .

(*) التنين كاسمه بالعربية ، مارد جبار طاغية . «المعرب» .

(٤٩) ليفانان مارد ورد ذكره في التوراة في سفر أيوب . هائل الجثة خبيث مدمر . - «المعرب» .

أو غيرها من القوى الشريرة ، إنه يجب الهدوء قبل كل شيء ولا يبالي بالآلام من خلقهم ولا بأفراحهم . لا ينشد الا الراحة هو .

وبما ان اسم « ايل » يشترك بكلمة « شور »^(٥٠) التي معناها « ثور » يجب أن نعرف بأن لهذا الإله السامي طبيعتين - أو يوجد روايتان كانتا من قبل مختلفتين ولكنها توحدتا مع الزمن - الأولى : إله أبوي مجهد قليلاً يحكم العالم الذي أبدعه على كيفه وإرادته ، والثانية إله مملوء نشاطاً وحيوية يسهر على إخصاب القطعان وبنفس الوقت على اخصاب الجنس البشري .

ولانعرف بصورة أكيدة أين مقرّه . فمن الواضح أنه كان لا يسكن السماء بل الأرض وبعيداً جداً عن الأقطار التي يقطنها البشر ، فهو في بلاد حيث الأنهار تصب في البحر . ولذا يمثلونه أحياناً يتنزه على طول شاطئ البحر مثل « يهوه » الذي تمثله التوراة يتنزه في جنة « عدن » «متنشقاً نسيم المساء» كما يقول سفر التكوين^(٥١) . ولكن إله اسرائيل وحيد بينما للإله « إيل » زوجة تحمل لقب « أشيرات يَم »^(٥٢) ومعناها « حامية البحر » أي اليم . ولهذين الزوجين أبناء لا يقلون عن سبعين .

و « إيل » هو العادل والحكيم من بين جميع الآلهة الكنعانية . يحاول أن يجعل العدالة تسيطر بين الآلهة . ويظهر في بعض الأحيان كريماً وهاباً يمنح طاقاته لبعض البشر في العالم أو لبعض الكائنات التي اختارها أو نسلت منه - الملوك لاغير- واثنان من الأبطال أو الانصاف آلهة شملها هذا العطف : الأول يدعى « دَانِل » والثاني « قيريت » .

(٥٠) كلمة «شور» ومعناها في الفينيقية أو الاوغاريتية «ثور» . قرب هذه الكلمة من آشور . «المعرب» .

(٥١) العبارة في التوراة : وسمعا (آدم وحواء) صوت الرب ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار - «المعرب» .

(٥٢) يم في العربية والفينيقية واحد ومعناها البحر - «المعرب» .

أسطورة الملك « دانيل »

كان الملك « دانيل » يحكم شعباً من المزارعين . فإذا مانبت الزرع ونضج فالفضل له ولن يحيط به ، ولاسيما لابنته « باغات » التي تعرف طرق النجوم . ففي وقت معلوم وقبل أن يقوم « دانيل » بأي عمل كان يجلس أمام باب مدينته الكبير فيسوي قضية الأرملة ويدافع عن حق اليتيم . ولاريب أنه كان يفكر كما كان يفكر فلاح « هيزيود »^(٥٣) أي أن من مارس العدالة وطبقها تزدهر ممتلكاته وتتوفر محاصيله وذلك مكافأة له على حسن تصرفه لأن الآلهة رضيت عنه . وكان « دانيل » يذهب بين الحقول ويتدخل لصالح المظلومين ويردع الظلام . وإذا كان الفينيقيون منذ خمسة وثلاثين قرناً يعلمون بأن الخضوع للآلهة لايقوم إلا بالعدالة فهذا دليل على انهم كانوا يفهمون أربابهم مفهوماً عالياً .

واسم « دانيل »^(٥٤) معناه « عدالة الله » وهو يشبهه - بفرق بسيط - لدانييل التوراة (دانيال) . والملك « دانيل » ليس « دانييل » النبي الذي عاش في عهد الملك « نبوخذ نصر » . ولكنه « دانييل » الذي تكلم عنه حزقيال (الاصحاح ٢٨ العبارة ٣)^(٥٥) لما وجه كلامه لملك صور معاصره ، لأنه تشبهه بالله تكبراً فصرخ الرجل الموحى إليه (أي حزقيال) : « هل أنت أكثر حكمة من « دانييل »^(٥٦) . وكنا لانعرف عن هذا «الدانيل» الحكيم شيئاً ولانفقه كلمة حزقيال ولاندرى ما معناها حتى قرأنا الاسطورة الفينيقية ، وعندئذ عرفنا مقصود «حزقيال» . اذن «دانيل» ملك كنعاني قديم حكيم اشتهر بعدالته واستقامته حتى ذهب اسمه مضرب الأمثال بين الكنعانيين وغير الكنعانيين . كانت المنطقة التي يحكمها هذا الملك العادل الحكيم تدعى « رب » Rp

(٥٣) هيزيود شاعر يوناني من القرن التاسع أو الثامن ق.م اشتهر بقصائده الدينية . «المعرب» .

(٥٤) اسم «دانيل» مؤلف من دان وإيل . ودان يدين دينونة حاسب اطاع ومنها الديان القاضي . وإيل إله . «المعرب» .

(٥٥) عبارة التوراة هكذا : «هانت احكم من «دانيال» ، سِرُّ مالا يخفى عليك» . «المعرب» .

(٥٦) أي «دانيال» المذكور آنفاً والمقصود به الملك «دانيل» . «المعرب» .

تارة وتارة « هـ ر ن م » Hrrnm^(٥٧) وما « رب » إلا بلاد رب م أورفائيم أحد شعوب العمالقة الذين كانوا يسكنون قديماً أرض فلسطين ونحن لَنَحْتَفِظْ لَهُمْ إِلَّا ذَكَرَى مَبْهَمَةً وَكَانُوا فِي زَمَنِ اسْتِيلَاءِ الْعِبْرَانِيِّينَ عَلَى أَرْضِ الْمِعَادِ . أما « هـ ر ن م » فهي مدينة فلسطينية ورد ذكرها مع مدن أخرى - من نفس الاشتقاق - في ورقة بردي مصرية يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق. م. ومن هنا نستدل على أن اسطورة « دانل » تشكلت في الأقطار الجنوبية (فلسطين) ثم انتشرت . وربما كان سكان أوغاريت يمثلون جالية كنعانية - منذ أوائل الألف الثانية - على شاطئ سوريا الشمالية .

الملك « قيريت » في شبابه

وصلتنا القصيدة التي تحمل اسم « قيريت » على ثلاث لوحات وعدد أبياتها ألف ، نصفها مفقود . وهذا تناسب عادي ولكن الثغرات تعرقل بالطبع عمل المترجم المتبع .

ولد « قيريت » من « إيل » و « أشيرات » ولكنه ليس بإله أو لم يكن كله إلهاً - فهو مثل « جلجامش » في الملحمة البابلية - ويجب على المرأة التي سيتزوجها أن تكون من البشر معرضةً للموت . ويجب أن تكون ابنة ملك بلاد « بابيل » ، و « بابيل » هذه كانت تدعى « أودوم » فهي بلاد الإدوميين^(٥٨) . إذن كان « قيريت » يحكم بلاداً^(٥٩) قريبة - دون شك - من « أودوم » . لقد طال حكمه وفي ذات يوم أخذه الخوف من العقم ، إذ لا ولد له - وهذه ، كما نعلم ، مسألة فولكلورية عالمية - فعكف في غرفته ، في أخريات قصره ، يقضي ليلته بالبكاء . وفي ليلة غفا فرأى في نومه أباه الإله ووعده بأن يهبه ذرية كثيرة .

(٥٧) والمظنون ان كلمة « هـ ر ن م » تمثل « هارنم » أو الهرمل في البقاع (لبنان) - راجع جبرائيل سعاده في أوغاريت . « العرب » .

(٥٨) إيدوم هو التسمية الثوراتية ولكن في الأشورية البابلية « اودومو »

(٥٩) هذه البلاد تسمى « خوبرو » (اقرأ أوغاريت لجبرائيل سعاده) « المؤلف »

ودلّه في نفس الوقت على التصرفات الواجب اتخاذها بكل تفصيل كيما يصل إلى غايته المنشودة .

وعندما أفق من نومه قدّم خضوعه لأبيه الإله «إيل» وإلى الإله «بعل» حاميه . ثم صعد إلى برجٍ ورفع يديه نحو السماء وضحّى بحمّلٍ وجددي وخبزٍ من خير صنّف وبطيرٍ وخمرٍ في كأسٍ من الفضة وبعسلٍ في كوبٍ من ذهب . ولما نزل من البرج جمع الناس - ثلاث مئة عشرة آلاف رجلٍ كما يقول الشاعر من غير البدو الذين كانوا كثيري العدد - . وعلى رأس هؤلاء الرجال زحف حتى حدود بلاد «أودوم» .

فانخدع الملك «بابل» كما يبدو بنيات جاره - ويجب أن ينخدع حقاً - لأنه كان مسالماً طيب القلب . فأرسل مبعوثين للاستفسار - وتوالت الرسائل - ولكي يثني «قيريت» عن هجومه قدّم له فضةً وذهباً وخيلاً ومركباتٍ وعبيداً . ولكن «قيريت» رفض الهدايا باحتقار وقال : عندي ذهبٌ وفضةٌ ! إنما ينقصني - العبارة حرفية - ولا يوجد في بيتي ، شيءٌ منه واحد ، وأنت وحدك ولا أحدٌ غيرك يستطيع أن يعطيني ، هذا الشيء الناقص الغير موجود هو حفيدتك «هوريتا»^(٦٠) اللطيفة مثل الربات والجميلة مثل عشتروت .

ومن ذلك الوقت زال اسم «بابل» من الوجود . فرضخ ملك «أودوم»^(٦١) للأمر الواقع ، ورضي بتزويجه - وهنا النص مقطوع - وهنا يتدخل «بعل» وأمر «قيريت» أن يتقدم من «إيل» ويطلب منه البركة ، بركة الزواج . وبعد أن قام بمختلف التصرفات - لاندرى ما المقصود منها ومن ذكرها في القصيدة - غادر بيته أو قصره وذهب إلى أبيه الإله «إيل» . وكان اللقاء سهلاً ومستعجلاً حتى ان الإله «إيل» مشى نصف الطريق كما طلب منه «بعل» واستقبل الملك بحرارة .

كان هذا الاستقبال غريباً وغير متبع . إذ كانت العادة : إذا أحبت الآلهة شخصية من مرتبة ثانوية - وكلهم هامشيون أمام «إيل» الإله الواحد - أن تلقى

(٦٠) أو «هوريتا» قريها من حورية . «المعرب» .

(٦١) أصبح اسم «بابل» من الآن فصاعداً «أودوم» المؤلف .

الإله «إيل» وتتقدم بطلب راجية متوسلة ، فإذا ماسح باللقاء ترتمي الشخصية عند قدميه ساجدة ، فيقبل هذا خضوعها وهو جالس على عرشه . وإذا كان أحد أبناء الإله حاضراً - ويجب أن يكون منهم اثنان على الأقل - يستقبل الآتي قائماً وممسكاً بيده كأساً كبيراً - ولا يقولون مافيها ولا لأي شيء أعِدَّت .

وهنا لم تراع القاعدة ، فكأن الملك مساوٍ للإله . وعندئذ بارك «إيل» الملك ثلاث مرات وقال له : « خذ زوجة (والأحسن دون شك : خذ الزوجة التي اخترتها) وأدخلها بيتك » . ولم يذكر هنا اسم الزوجة ولكننا عرفناه من الفصل السابق ومن الفصل الذي يلي . فهي «هورياً» حفيدة ملك «أودوم» . وأخبر «إيل» بعد ذلك «قيريت» بأن زوجته ستلد له سبعة أبناء لابل ثمانية ومثلهم بنات . وسيسمى الولد البكر «ياسيب» وسترضعه الإلهتان «اشيرات» و «آنات» . - كان من المفروض ان نعرف أسماء الأبناء الباقين وأسماء البنات ، ولكن قسم مفقود ماعدا الحرف الأول والأخير من اسم احدى البنات - .

ونسلمع الإله يقول للملك بأن الأبناء وأبناء الأبناء سيحبسون « بين رفائيم الأرض» . ويجب أن نفهم من هذا القول بأن ذرية «قيريت» تذكرنا نوعاً ما بأن شعب «رفائيم» الشجاع ، جاءته الشجاعة من هنا .

ويتهي خطاب الاله بتصريح يتعلق بالبنات بأنهن سيولدن بعد الأبناء . وهذا التصريح عبارة عن كلمات ثلاث : « سأجعل من صغراهن البكر هن » والمعنى « سأعطي للصغرى حق البكورية » والمقصود البنت التي تحمل الاسم أو اللقب «شيتمانات» أي الثامنة . وإذا كانت «شيتمانات» هي الوحيدة من بين أخواتها ستلعب دوراً خاصاً بها فيه كل النشاط ، فلانستغرب مايمر معنا - بأنها قد اختارها الإله قبل ولادتها لتشغل مكاناً مرموقاً وممتازاً إلى جانب والدها . واسم «شيتمانات» يتفق تماماً مع هذا التصرف ؛ إذ عدد سبعة مقدس وعدد ثمانية قريب جداً من التمام إذا لم يكن التمام نفسه . وبعد أن بارك الإله «إيل» «قيريت» للمرة الأخيرة انسحب مع بقية

الآلهة - أي مع موكبه - إلى « خيامهم أو مساكنهم »^(٦٢) والكلمتان (خيام ومساكن) وردتا بالاسم والترتيب في سفر « صموئيل » الثاني (الاصحاح ٧ العبارة ٧)^(٦٣) فيذكر أن «يهوه» إله اسرائيل كان يسكن في خيمة أو مسكن وذلك في زمن سابق لسليمان الذي بني له بيتاً (الهيكل) ، في زمن كان «يهوه» وشعبه يعيشان متنقلين أي في حالة بدوية .

ولكن في قصائد «رأس شمرا» كان لاكثر الآلهة بيوت أو قصور . فكان للإله «إيل» بيت هو «بيت الله» . فهو لم يكن إلهاً بدوياً متنقلاً مثل إله الفينيقيين . وإذا ما رأيناه ينسحب إلى خيمة فهو قد خرج منها ليبارك «قيرت» . فهو إذن قد ترك مكانه أو كان مسافراً^(٦٤) . ولاشيء يمنعنا من أن نتقبل من أنه عاد إلى مسكنه على مراحل .

إن ولادة أبناء الملك وبناته قد بُلِّغَ عنها أو قد سُجِّلَت في تعابير جد وجيزة ، ولاشيء في هذا المشهد يسترعي الانتباه إلا حادثٌ واحد ، هو إن الشاعر تحدث عن أبناء «قيرت» وعن بنات «هوريا» فكان في ذلك المجتمع يعزون بصورة خاصة الأبناء للأب والبنات للأم .

ومنذ ولادة أولئك الأولاد - الذكور والإناث - وهبتهم أمهم أمام الإلهة «أشيرات» جدتهم للآلهة . فما هو هذا التكريس وهذه الهبة؟ - لانعرف - فاذا كان معنى فعل ن در^(٦٥) NDR المستعمل هنا معروفاً منا جيداً فقد وضح في عبارة معناها غير واضح .

إننا نعرف أنه كان لدى العبرانيين رجال يسمونهم «المنذورين» (كلمة

(٦٢) المساكن مفرداً مسكن ويقصد به بيت القرابين . «المعرب» .

(٦٣) العبارة هي : لأنني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني اسرائيل من مصر الى هذا اليوم ، بل كنت أسير في خيمة أو في مسكن . «المعرب» .

(٦٤) قارب بين هذا القول وبين كلام صموئيل (الملوك الأول اصحاح ١٨ عبارة ٢٧) مندداً بكهنة «بعل» : «أدعوا بصوت عالٍ لأنه إله مستغرق أو في خلوة أو سفر أو لعله نائم فينتبه . «المؤلف» .

(٦٥) نَدَّرَ أو نَدَّرَ فعل عربي بحت . «اني نذرت للرحمن صوماً» . والنذر معروف ولعل الأوغاريتيين كانوا يلفظون الذال دالاً . «المعرب» .

مشتقة من جذر ن ذر NZR القريب من ن در NDR) وقد نذروا لله وأحياناً كانوا يُنذرون قبل مولدهم ، وكان يجب عليهم أن يطلقوا لحاهم وشعورهم وان يمتنعوا عن شرب الخمر . ومن أشهرهم « شمشون » و « صموئيل » . وفي التوراة اصحاح كامل للأوامر الطقوسية المتعلقة بالمنذورين وهو الاصحاح السادس من سفر العدد^(٦٦) . ومع ذلك فنحن لانعرف - بصورة جلية - ماهي النذارة وكيف كانت ؟

ونعرف أيضاً أن النذر كان يشمل في اسرائيل النساء والرجال . اذن من المعلوم في أسطورة «قيريت» ان البنات كن منذورات مثل الأبناء ؛ وكذلك كل مايلدون بخلاف العهد القديم فالنذر فيه حالة شاذة .

وفي قرطاجنة - مستعمرة صور - كان لكلمة نذر ونذر معنى يختلف عن معناها في اسرائيل ، وهو معنى واضح ولكنه مشؤوم أكثر مما هو واضح ، فالولد المنذور سيقدم ضحية للإلهة الطاغية «تانيت» . ويشترط أن يكون ذكراً في شهره السادس على الأقل . ولكن في «رأس شمرا» ليس للفعل نفس المعنى . ويكفي لكي نفتتح أننا نرى أولاد «قيريت» الذكر منهم والانثى أحياء^(٦٧) في الفصل الثاني من الملحمة حتى « ياسيب » بكر الذكور وحتى « شيتانات » الصغرى من البنات التي ستصبح «بكر الاناث» .

إن تكريس أبناء «قيريت» للآلهة جرى ليكونوا جديرين بالملك . ولن نقف أمام هذا التفسير . وان كانوا منذورين ليسوا بممسوحين^(٦٨) . ثم لاشيء يدل على انهم نذروا ليمارسوا السلطة والحكم .

وهذا المشهد (مشهد التكريس) مبتور، ولا نملك إلا أوله الذي هو عبارة عن اثنتي عشرة كلمة ثم نقع في ثغرة من خمسة عشر سطراً تقريباً . ثم نرى أنفسنا فجأة أمام حَدَثٍ جديد نستطيع أن نختصره بكل سهولة إذ النص

(٦٦) العدد الاصحاح ٦ من العبارة ١ الى ٢١ «المغرب» .

(٦٧) أي ، لم يقدم أحدهم أو احداهن قرباناً - «المغرب» .

(٦٨) المسح بالزيت دلالة على القدسية . «المغرب» .

الأصلي نفسه مختصر جدا - ولعله إيجاز نموذجي - فلا يقدم أية عقبة لا في القواعد ولا في الرُّقم^(٦٩).

وبأمر الملك جهزت «هوريا» غداءً . فذبحت أثنى الكباش وأسمنها وفتحت خابية كبيرة من الخمر ثم دعت ثيران الملك السبعين وغزلانه ؛ وطلبت منهم أن يدخلوا قصر الملك قائلة : « قدموا قرباناً على شرف أبيكم قيريت » . من المفهوم أن أولئك الثيران والغزلان - سيدهم « قيريت » - الذين دعوا ليدخلوا القصر ويقوموا بالتنفيذ ليسوا بالواقع إلا بشراً وسمّوا ثيراناً وغزلاناً على طريقة المجاز . ونجد هذا المجاز في كثير من مستندات « رأس شمرا » كما نجده في العهد القديم (التوراة) .

إذن هؤلاء الثيران لبسوا إلا خدماً «لقيريت» . ولا شك بأنهم رؤساء ورؤساء يعرفون سلطته عليهم . ولا سيما إذا صدرت الأوامر من فم زوجة الملك . وبما أن «قيريت» ابن الإله «إيل» الذي يسمى في كثير من المواضع في الملحمة «الاله الثور» فليس من المستغرب أن يوجد في بلاط ملك كهذا رجال يدعون بالثيران .

وقد جاء - في الملحمة - أنهم من بلاد «خابر» ، ونعرف ان أهم مدينة في مملكة «قيريت» كانت تدعى «بيت خابر» ولذا لا يسعنا الا أن نتقبل بأن هذه المملكة كانت تسمى «خابر» . و «بيت خابر» اسمٌ مبدوء ببيت كما نقول «بيت لحم»^(٧٠) .

أما عبارة «ثيران خابر» فتدل على موالي «قيريت» أو على مساعديه وضباطه . وهي تشبه عبارة «كباش موآب» التي تنطبق في سِفْر خروج (الاصحاح ١٥ عبارة ١٥) على أمراء «موآب» الذين كانوا كلهم منذورين مثل الخابريين الموكلين بحراثة الحقول وتربية الحيوانات .

(٦٩) الرُّقم مفردها رقيم الشيء المكتوب على لوحة فخارية أو غيرها . «المغرب» .

(٧٠) بيت لحم قريبة من القدس ، وكثير من المدن والقرى تبدأ ببيت . «المغرب»

انحطاط الملك « قيريت »

الفصل الثاني من اسطورة «قيريت» مفصول عن الفصل الأول بثغرة كبيرة . وهو يروي عهد انحطاط الملك أو سقوطه .
اجتمع أولاد «قيريت» - وقد أصبحوا كباراً - حول أبيهم ليهنئوه بنجاته من الموت وليفرحوا - يبدو أن الملك كان في خطر الموت إثر مرض أو حادث .
وباسم الأسرة كلها تقدم ابن الملك - لاريب أنه الابن البكر - وعبر عما مكنون من ابتهاج لنجاته . وهكذا بدأت هذه الغبطة ولكن على ما يظهر لم تكن كما يجب فقد شابها الأسى . هذا وإن كان لم يذكر بشكل واضح ولكننا مضطرون لأن نقرأ بين السطور لابل بين الحروف فتأكد من ذلك لأننا نرى في اليوم التالي - إذا لم يكن في اليوم نفسه - أبناء « قيريت » في قلق واضطراب شديدين .

لقد امضى «قيريت» حياة كلها انتصار فلم يُغلب ولم يُجرح مثل الخالدين . أما الآن بعد أن أصيب فقد ظهر العكس بالرغم عن أصله الذي هو من جوهر الآلهة - وهذا مما يبده جميع المخاوف - . وأعرب الابن البكر عن قلق الجميع بقوله موجهاً كلامه لأبيه : « إنك ستموت ككل إنسان » . .

هذا وإن كان قرار القضاء قد لفظ الآن ولا يمكن مقاومة هذا القرار فان الأسرة ستعمل المستحيل لكي تبعد شبح الموت الذي يرود حول البيت . إنهم يريدون أن يؤخروا المصيبة وأن يربحوا وقتاً ، ولذلك صرح ابن الملك باسم الجميع بأنهم سيسهرون على البيت ويراقبون الشوارع ويقومون بحراسة مشددة شبيهة بحراسة كلب أمين .

إذن ، لو أخذنا بجميع الاشارات أو الرموز المبعثرة في قصيدتنا لكان من المحتمل جداً أن « قيريت » ابن الاله سيموت يوماً رغم منبته لأنه لم يعرف كيف يملأ المهمة التي أوكلها الإله اليه : وهي أن تسود العدالة على الأرض أو على الأقل في مملكته .

لاريب انه في بادىء أمره أظهر خضوعاً تاماً وإطاعة عمياء لإرادة أبيه الإله . ولكنه مع مرور السنين - وهي كثيرة ، ابتعد دون أن يشعر - أو أحب أن يتبجح - عن الطريق المستقيمة . لقد أخطأ بحق العدالة وهذا ذنب لا يغتفر ولاسيما إن صدر عن ملك .

لذلك سيموت يوماً - رغم انه ابن إله - لأنه خان الثقة . سيعيش بعض الوقت - وربما طويلاً بعد جراحه أو مرضه ، ولكن وعيد الموت يُثقل عليه من الآن فصاعداً وحتى نهايته . فهو شبيه بآدم الذي لم يمت غبّ سقوطه إذ عاش قروناً بعد طرده من الجنة وحتى عُمر ٩٣٠ عاماً .

وكذلك بين أسطورة «قيريت» الشعرية والعهد القديم يوجد تقارب ومشابهات يجب أن نبينها .

فأولاً هذه الحالة التي تمر بالملك ولاسيما هذا الحكم يستدعي في الذهن ذكر أحد المزامير ويحمل رقم ٨٢ وفيه يتوجه الله بالحديث إلى الحكام . قال

لهم :
حتى متى تقضون جوراً
انصفوا المسكين والبائس
نجوهم من يد الأشرار

وبما أن هؤلاء الحكام (القضاة) الأشرار لا يسمعون ولا يفقهون شيئاً فقد حكم الله عليهم ولفظ قراره :

إنكم (حتى الآن) آلهة)
ولكن (بما أنكم ارتكبتم الخطيئة ولم تتوبوا)
مثل الناس تموتون .

« مثل الناس تموتون » وهذه العبارة بالعبرية : « كي آدم تيموتون »^(٧١) نفهمها كما فهمها الناس من قبل هكذا : « ستموتون مثل آدم » وربما دل هذا الاسم « آدم » على البشرية جمعاء كما يدل على الانسان الأول . ولذا يجب أن نترجمه «مثل الناس» وليس «مثل آدم» . ومن جهة أخرى ، فان الترجمات

(٧١) كآدم تموتون . «المعرب» .

القديمة للتوراة التي تحمل اسم « أوس أنثروبوي » (سبتانت)^(٧٢) واسم « سيكوت هومينيس (فولكات)^(٧٣) »

تقول كما تقول ملحمة «قيريت» - مثلما رأينا الابن يقول لأبيه - :
« ستموت ككل إنسان بسيط » .

ولما سمع « قيريت » كلام ابنه ورآه في كآبة عميقة قال : « لاتبك هكذا ولاتأوه » ولكن هذا لايعني أنه لايجب لأحد أن يبكي . وقام الابن بأمر والده وذهب ليحضر احدى أخواته وهي الأخت التي تدعى « شيتانات » - الثامنة - لكي تندب مكانه . ولكن هذه قامت بأمر آخر ، فهي تحاول أن تنفذ أباهها ولذا قدّمت قبل كل شيء قرباناً للاله وطلبت بتضرع وتوسل شفاء الوالد . (قارب بين هذا الاسم وبين ماجاء في الأسطورة) .

تأثر الإله « إيل » من هذا الحزن العميق فجمع الآلهة إيليم^(٧٤) حوله وكلهم أبناءؤه - وعددهم سبعون كما مرّ - وطلب منهم أن يعطفوا على مصير « قيريت » وان يهتموا به ويتدخلوا لانقاذه حتى ولو كان متهما فهو ابنه . ثم ألقى عليهم هذا السؤال البسيط مباشرة : « من منكم سيطرد الضرر الذي يشكو منه الأمير؟ » .

كنا نظن - بعد أن ألقى « إيل » سؤاله الواضح المستعجل - بأن الآلهة سيلبون طلب أبيهم ويسرعون بأجمعهم ويتنافسون النشاط . ولكن لم يحدث شيء من هذا . لم يجبه واحد منهم حتى ولا بكلمة . وكرر الإله سؤاله واعاده ست مرات متوالية والسكوت شامل ، فلا جواب وحتى للمرة السابعة^(٧٥) .

(٧٢) أقدم ترجمة للمعهد القديم إلى اليونانية وقام فيها ٧٢ قاضياً من مصر وبأمر من بتوليموس فيلادلفوس (بطليموس) وهي أشهر ترجمة (٣٨٣ أو ٣٨٢ ق.م) «المعرب» .

(٧٣) ترجمة التوراة إلى اللاتينية وفقاً لسبتانت وصححها القديس جيروم ولكن رجال الاصلاح في القرن السادس عشر رفضوها لكثرة أخطائها . «المعرب» .

(٧٤) إيليم جمع إيل ، لانسى ان علامة الجمع عند الفينيقين «يم» وعندنا «ين» . «المعرب» .

(٧٥) هذه الطلبات السبع كثيرة الوقوع في الأدب البابلي . ولكن العادة أن يكون للطلب السابع الجواب الحسن والحاسم - «المعرب» .

الهدوء مسيطر على الجميع ، إنهم يعرفون أو يشعرون بأنهم لا يقدرّون على شيء ، وانهم عاجزون أمام الموت وأمام المرض المميت . لقد كانوا يعتبرون أن « قيريت » مُتهم ومن العدالة أن يكفر عما اقترف . إذن وأمام هذه الخيبة سيقوم « إيل » بهذه المهمة ، لأنه - بحكم طبيعته - أرحب صدرًا وأشفق نفساً ، وسيغفر له لأنه ابنه .

وهنا نرى الإله الأب ينهض ويأمر الآلهة بالجلوس ويخبرهم بأنه هو الذي سينقذ الأمير . ولكن تدخله لم يكن مجدياً - كما نعرف - . إذ عندما يواصل النص سرده بعد انقطاع - في هذه المرة قصير - نرى ان « قيريت » لم يشف ، وحالته تتطلب المزيد من الاعتناء . فمن الذي يتقدم للعطاء؟ انها « شيتمانات » الابنة الصغرى ، الابنة الثامنة .

بكت من قبل وتأوهت - كما مر - وهاهي الآن تتهياً للعمل . فهي تغدو وتروح وتدخل وتخرج وتضاعف حركاتها - تصرفات لاندرى القصد منها - ولكن ها « قيريت » يتماثل وتواتيه الشهية ويأمر زوجته « هورتيا » أن تذبح حملاً يأكل منه يوماً بل يومين . وأخيراً بريء . وابنته الثامنة هي السبب . هذا عمل معروف منا جيداً . فقد كان لدى الفينيقيين إله اسمه « أشمون » ومعناه « الثامن » . إذن « فأشمون » إله شافٍ . وسيأخذ الإغريق هذه الفكرة ذات يوم مع « اسكيليبوس »^(٧٦) الذي نسميه نحن اسكيلاب .

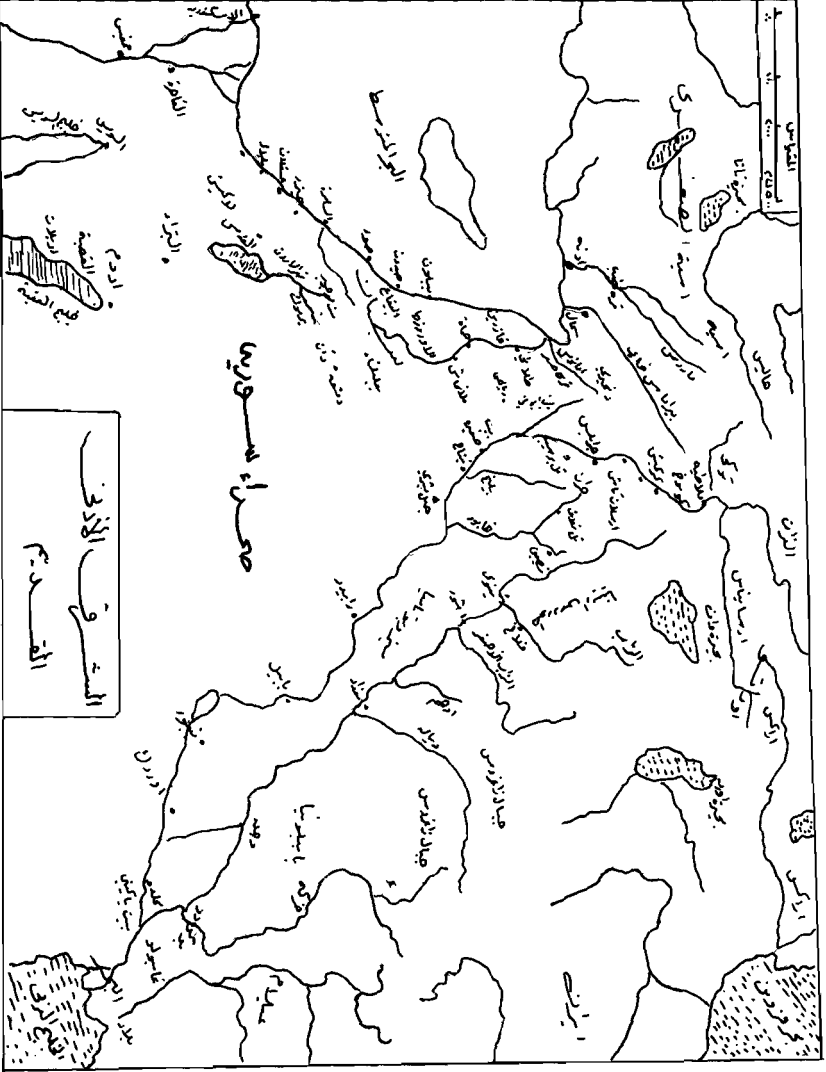
هذا وان كان « قيريت » قد بريء طبيعياً فإنه لم يزل مصاباً روحياً . إنه يفكر دائماً بالخطيئة التي ارتكبها وبما اقترف غيرها من ذنوب بحق الآلهة . وما ان انتهوا من تناول الطعام حتى طلب « قيريت » الأكل ، وفجأة دخل ابن الملك القصر مدفوعاً بحس داخلي ، لا ليكي ويتأوه ولكن ليذكر أباه بواجباته وصرخ : « أنصف الأرملة ، غذّ اليتيم ، عاقب الظالم وأنقذ المظلوم ؛ أو إنزل عن عرشك لأجلس أنا مكانك . . .

وعندئذ نهض « قيريت » - وكنا قد رأينا انه قد استردّ قواه - ليلعن ولده

(٧٦) إله الطب عند الاغريق وهو ابن « أبوللون » . « المعرب » .

ويهدده بانتقام الآلهة . ولكن ليس كل الآلهة بل اثنان فقط : « ليحطم حورون وعشثروت جهمتك وليلقوك في المهواة مهشم الرأس » .
هل استجاب الآلهة لدعاء الملك ؟ أيعاقب الابن لانه ثار ضد ابيه ، وان كان سبب تمرده شرعياً ؟ لانتطيع أن نجيب لأننا لانعرف ماذا نقول ، فنهاية النص مفقود .

وعلى كل حال ، فمن المسلم به أننا أمام اسطورة من نوع ماترويه التوراة عن أنبيائها ، اننا مع قصة فلسفية . وما اسطورة « قيريت » الأ تاريخ ملك شيخ ، ولعله أقدم رؤساء كنعان ولذلك احتفظوا بذكراه . تاريخ ملك طلب الزواج من امرأة من بلد مجاور له ، واختطفها عنوةً ليجعل منها زوجته وأم أولاده ؛ تاريخ ملك أيضاً تحمل عواقب وخيمة وعوقب بالموت لأنه لم يستطع القيام بالدور الذي أوكل إليه .



« بعل » وإله البحر

إن لوحة « رأس شمرا » التي نعطيها العنوان المذكور أعلاه ، تعد أربع مئة سطر ، مقسمة إلى أربعة أعمدة اثنان على الوجه الأول واثنان على الوجه الآخر . ولكن لا يوجد بين أيدينا أكثر من مئة وليست على التوالي . إذ لم يبق الا النصف الثاني من العمود الأول وجزء من العمود الثاني والفصل الأول من الرابع .

فإذا ما أخذنا هذه القصيدة بمجموعها - كما هي بين أيدينا - نراها تشتمل بصورة خاصة على معركة أو بالأحرى على سلسلة من المعارك بين « يَم » الذي معناه « البحر »^(٧٧) وبين « بعل » سيّد الأرض . ويساعد « يَم » - ويسمى أيضاً « إيل يَم »^(٧٨) (إله البحر) أو « زابل يَم » (أمير البحر) - الربة « أشتار » - ونسميها مثل الاغريق « عشثروت » - ويتحالف دائماً مع الإله « نهر »^(٧٩) الذي ينعتونه بـ « شوييت » أو « سوفييت » أي القاضي أو المنصف^(٨٠) .

(٧٧) (رادوتني هنا فكرة : من أين اتخذنا ال التعريف؟ هل جاء من إيل «إله»؟ فكل معرّف ندخل عليه ال . فهل أخذنا عن الاسلاف هذا التعريف؟ «المعرب» .

(٧٨) لدى الكنعانيين ربة بحر تسمى «أشيرات يَم» حامية البحر التي لم تكن - بعكس مانفكر - زوجة «يم» بل هي زوجة «إيل» الإله الأب . و«إيل» كان نشاطه نحو البحر أكثر منه نحو الأرض وإذا كان «يم» ينعت «بموداد إيل» أي حبيب «إيل» فما ذلك الا صفة لن تمر معنا قط ولن نراها قط مرتبطة باسم بعل . «المؤلف» .

(٧٩) كلمة يَم ونهر عربية بحتة . وهذا يدلنا على عمق جذور لغتنا . «المعرب» .

(٨٠) اشارة واضحة إلى الاجراءات العتيقة في التجارب القضائية للماء . ولما النهر الذي نحن بصدده في تشريع «حمورابي» من الفقرة الثانية . غير ان النهر القاضي في رأس شمرا لا يلعب قط في القصيدة دوراً له علاقة بتسميته . «المؤلف» .

سنحاول أن نعرّف معنى الفصول الثلاثة أو بالأصح القطع الثلاث التي حفظها الزمن .

يبدأ الفصل بجداول عنيف بين الإلهين « يَم » و« بعل » . وهنا حالة النص رديئة ، فنحن لانعرف سبب هذا الخصام ، ولكننا في القطعة الثالثة نرى بعض الايضاحات في هذا الشأن . ولاضرر إذا ماقلنا على الفور بأن سبب الشجار هو الذهب ، فكل منهما يبغى أن يستحوذ عليه .

وعلى كل ، فالمتنافسان يبرقان ويرعدان ويتوعدان بعضهما بعبارات تكشف - دون شك - عمّا يعتمل في صدرهما من مشاعر . ويبدو أنّ « يم » أشد وأعنف ، ونسمعه يستنجد « بعشتار » (أشتار) ويطلب منها لابل يأمرها « أن تحطم رأس « بعل » وان تلقّيه في مهواة سحيقة » . وهذه - وإن كانت حامية « يم » لم تقم بدورها ، لا بالوقت الحاضر ولا في أيّ وقت ، حتى النهاية .

وبما أن لبعل حامية - الإلهة « آنات » كنا نتوقع أن تلتقي الربتان المتشاحتان وتقع الواقعة . ولكن لم يحدث شيء من هذا . « فآنات » لن تتدخل مثل « عشتار » في كل حوادث القصيدة . فمن هنا أي من غياب الإلهتين نستنتج أننا أمام نوع آخر من الميتولوجيا . ولذا دعا الأوغاريتيون هذه القصيدة باسم « بعل » لاغير؛ ليكون له الدور الأول فيها .

وانتهى السباب بشكل مفاجيء - وهذا ما يحصل في هذه الأناشيد . فلم يتشابك البطلان بالأيدي ولم يتماسكا ولم يتلاكما - إلا فيما بعد . أما الآن فقد افترقا أو بالأصح ظلّ « يم » في موقفه وانسحب « بعل » ملتجئاً إلى جانب والده « إيل » . لقد شعر - ولاريب - بأنه ليس بالأقوى والأشد .

وليس جلياً أن « بعل » احتمى بأبيه ، مع ان النص هنا سليم ولكنه لايشتمل على أية اشارة لهذا الأمر ، ومع ذلك يجب أن نتقبل بأن هكذا وقع ، إذ نرى أنفسنا منقولين في المشهد الذي يلي تماماً إلى قلب أو قمة جبل . وقد

كتب اسمه ل ل (فتقرأ : « لائل » أو « ليل » أو « لول ») . وهذا الجبل هو مقر « إيل » . ونرى أولاده الآلهة ومعهم « بعل » نفسه يحيطون به .

وعلى أثر الحادث الذي وقع أرسل « يَم » مبعوثين إلى « إيل » ويسأله بعبارات قاطعة تسليم « بعل » . ودنا الرسل من الجبل المقدس . وكان الآلهة في تلك اللحظة يجلسون على الأرض ويأكلون ، فخفض هؤلاء رؤوسهم إلى رُكبتهم وذلك ليعربوا عن مقتهم .

واستنكر « بعل » موقف الآلهة وسألهم بلهجة ساخطة « أريد أن أعرف لماذا خفضتم رؤوسكم » . ولكنهم لم يجيبوه على سؤاله ، لأنهم لا يقدمون حساباً عن أعمالهم لبعل بل لأبيه « إيل » لاغير . وبما أن « إيل » لم يسألهم فلن يجيروا جواباً .

إذن ، رسل « يم » حاضرون أمام « إيل » فسجدوا - كالعادة - لأبي الآلهة ثم نهضوا لیتلوا الرسالة التي حملوها - إذ كما يظهر أنه كان هناك رسالة مكتوبة منقوشة على لوحة .

الرسالة مختصرة جداً تحوي عرض « يم » ومطلبه الوحيد : تسليم « بعل » دون إمهال . وهذا أمر على صورة طلب . ويعيننا آخر كلمات الرسالة ، إذ نقف على سبب الشجار ، وهذه الكلمات هي : « سأستحوذ على ذهبه » أي على ذهب « بعل » .

وهكذا تحدد مطلب « يم » . ويجب أن نقر به من أحد فصول القصيدة الكبيرة وفيه : إن آتات تتبجح بأنها استولت على الذهب إثر معركة نشبت بينها وبين أعدائها الرهيبيين الذين كان « يم » و « نهر » من بينهم يمثلان أعظم القادة . وقد أعطت هذا الذهب لأخيها « بعل » . ولذا يريد « يم » أن يسترجعه . ولانستغرب إذا ما رأينا « بعل » يحتمي بأبيه « إيل » فراراً من انتقام « يم » .

لما سمع أبو الآلهة ماتشتمل عليه الرسالة اتخذ قراره على الفور وصرح :
« إن «بعل» خادم «يم» . إذن يجب على إله الأرض أن يقدم لإله البحر الغرامة
المستحقة . لقد ربح «يم» الدعوى دون جهد ومن المحتمل على «بعل» أن ينفذ
مطالب خصمه . هذا هو حكم الإله العلي . أيرضخ للحكم؟ لا ، وهانحن
نراه يهجم على الرسل ويضربهم ، وتحاول «عشتار» أن تعيده إلى صوابه
فأمسكت بيمينه وشماله - كما هو - مكتوب - ولكنه تفلت منها وواصل الضرب
دون هواده .

وآخر هذا الفصل - الفصل الأول - مفقود ، ولكننا نعتقد بأن رسل
« يم » لا قوا مصرعهم . لقد تصرف « بعل » على هواه ولم يتدخل أحد .

ينفصل الجزء الثاني عن الأول بشجرة كبيرة ، ونظن انها تبلغ «١٥٠»
سطراً . وقد تُلّف الكثير منه مما يجعل قراءته عسيرة جداً . ولكن من المؤكد ان
إله الآلهة «إيل» أمر المهندس «كاشير» - مهندس قصور الآلهة - أن يبني قصرًا
فخماً « ليم ونهر » .

هذا الإله « كاشير » هو أحد الوجوه الهامة في الميتولوجيا الكنعانية وأحد
الذين تحددت وظيفتهم تماماً . فهو مهندس وصانع أسلحة في آن
واحد ، وله مسكنان أحدهما يسمّى « كَبْتَر » Kptr والآخر « هكبت » Hkpt . و
« كبتَر » وفقاً لكل الاحتمالات هي « كافتور » في العهد القديم أي « كريت »
أو بصورة عامّة «العالم الايجي» . أما « هكبت » فهي مصر «Egypt» التي سميت
باسم « ممفيس » المدينة الشهيرة والقديمة جداً .

كان الكنعانيون يعترفون كل الاعتراف بأن لجيرانهم الغربيين منناً كثيرة
عليهم . ففي نظرهم إن فن البناء ، إن لم يكن فن بناء البيوت فعلى الأقل فن
بناء القصور والهياكل ، قد جاءهم من الغرب ، وكذلك عمل التعدين وربما
أيضاً الصناعة الفخارية . ويعزون كل هذه الحسنات المدينين بها إلى الإله
الذي يسمونه « كاشير » واسمه مصحوب في أكثر الأحيان بصفة « العامل
الماهر » .

لقد نفذ المهندس « كاشير » الأمر الذي صدر عن الأب الإله ، ولكن - كما يبدو - بعد أن انهى عمله انحاز إلى « بعل » . وسرى هذا واضحاً في الفصل الثالث والأخير من الفاجعة .

ونسلم « كاشير » يحرّض « بعل » بعبارات ملحّة على مهاجمة عدوه أو عدوّه « يَم » و « نهر » ، قال له : « اضربهما ، يجب أن تصرعهما إن أردت أن تمتلك القدرة إلى الأبد » . ولم يحرّض « بعل » على المعركة فحسب ، بل - بفضل طاقته - صنع له نبتين (دبوسين) وقدمهما له . فتناول « بعل » هذا السلاح الرهيب وخاطبه (أي السلاح) كأنه يخاطب كائنات حية قائلاً : « اقفزا بسرعة كالنسر واضربا « يَم » بين عينيه وبين كتفيه » . هذا وضرب « يَم » على جبهته وعلى ظهره بكل ضراوة فسقط أرضاً ، وانهار قصره - القصر الذي بناه له « كاشير » بيده - بنفس الضربة .

هل مات « يَم »؟ لم نتأكد ولكن على كل حال هُزم . و « عشتار » - التي كان من الواجب عليها أن تساعد في هذه المعركة الفاصلة - وقفت بمعزل وعلى حذر . ولكنها برزت أخيراً لتوخيخ « بعل » على مافعله ، قالت : « خجلاً لك » . وكان عليها أن تقول شيئاً آخر ، كما كان عليها أن تقرن القول بالعمل . ولكن لاشيء في الخمسين سطرًا الأخيرة من القصيدة .

هذه هي القصة في كل استطاعة ممكنة بمعناها الحرفي - الثغرات كثيرة - والآن علينا أن نبحث عن الغاية المتوخاة .

لنفرض ، وللحظة ، أن الفصل الثالث جاءنا كاملاً غير منقوص ، فكيف نفسر وكيف نستخرج المغزى؟ لا ريب ان المغزى هو هزيمة البحر أمام عنفوان الأرض .

يوجد في ميتولوجية الشرق القديم شيء من هذا النوع ، إننا نتذكر تلك المعركة الهائلة التي نشبت بين الإله البابلي « مردوخ » وبين المارد « تيامات » في أول الدهر . و « تيامات » هو المحيط . وقد انتصر « مردوخ » بجهد واستطاع

بعد ذلك أن ينظم العالم ويضع الكواكب في أمكنتها ويخلق الكائنات التي تسكن الأرض والسماء والمياه . وفي آخر الأمر خلق الإنسان . ولُقِّبَ « مردوخ » المنتصر على « تيامات » « ببيل » ، و « بيل » هو « بعل » ، لأن معنى كلمة « بعل » السيد والمولى .

ومع ذلك ورغم ما ذكرنا من مناسبات الأحداث - رغم النواقص - فإننا لانرى أية صلة بين انتصار « بعل » على « يم » وبين هذا الشرح المتعلق بالفضاء الكوني وذلك لسببين هامّين . أولاً : في ميتولوجية رأس شمرا ، بعل لم يخلق العالم ولم ينظمه ولكن « إيل » . و « إيل » ليس أبا الآلهة فحسب ، بل أبو البشر أيضاً ولذا يلقب بخالق المخلوقات . ثانياً : كان من الواجب أن يكون الفصل الثالث في بدء القصة لأنه يتعلق بقصة الفضاء وما نحن نراه في الوسط لابل في الأبيات الأخيرة من القصيدة ذات الفصول المتعددة .

إذن لنعمد إلى تفسير آخر يعرض في الذهن قبل غيره ؛ وهو تفسير نستطيع أن نصفه بالجغرافي . وإليكموه : أراد الشاعر أن يصف الهجوم الذي يقوم به البحر كل يوم بحماس أو بدون حماس على الأرض ، وخاصة على شاطئء سوريا الذي نسّميه كما سمّاه الإغريق « فينيقية » . فالبحر يهاجم دون توقف فينتصر بعض الأحيان ، مثلاً : لقد دمرّ رفرفاً من الصخور في مدينة « بيلوس » (جبيل) منذ خمسة وعشرين عاماً . ولكن هذه الأحداث صغيرة وبسيطة ، إذ سرعان ماتهدأ العاصفة وينسحب الماء ؛ فكأن الأرض قد انتصرت ، ويظل الشاطئء واقفاً أمام البحر ؛ ونستطيع أن نقول : إن « بعل » هو الذي انتصر على « يم » أو الأرض تغلبت على البحر .

ولدينا شرح آخر إلى جانب هذا الشرح ندعوه بالتاريخي^(٨١) . من يدري

(٨١) لقد اقترح « هيروزني » في كتابه الحديث (تاريخ آسيا القديمة والهند وكريت) بأن نعتبر القصائد البابلية المتعلقة بالخليقة كملحمة تشيد بانتصارات الأكاديين بزعماء « مردوخ » على السومريين بقيادة المارد « تيامات » حيث المياه تغمر البلاد في قسمها الجنوبي . « المؤلف » .

إذا كان لا يوجد هنا صدئٌ لتلك المعارك المتواصلة التي اضطرت الكنعانيون أن يخوضوها ضد الغزاة القادمين من الغرب وضد المصريين - وهم أناس مسالمون منصرفون لزراعة حقولهم - . أولئك الغزاة الذين كانوا يسموهم بحق « شعوب البحر » . ولئن استطاع هؤلاء المهاجمون أن يفوزوا ببعض النجاحات المحلية فسرعان ما كانوا يختفون بعد قليل من الأجيال عن مسرح الأحداث لأن السكان الأصليين يمتصونهم . ومن هنا جاء : ان «بعل» صرع «يم» . فبعل يمثل البطل الوطني فهو رجل الحريات الكنعانية وله الحق أن يلقب بالسيد والمولى .

اذن «بعل» سيد الأرض ، الأرض المغذية التي تهب دون من استمرارية الحياة . وهي لاتقدم الخبز والخمر فحسب بل تعطي أيضاً الذهب والفضة والحجارة الكريمة وكل ما يدخل في نطاق الغرامات التي يدفعها المغلوب للغالب أو العبد لمولاه . وهذا هو كل ما كان يبتغيه «إله البحر» وما يريد أخذه أو استرجاعه . وهذا هو كل ما كان «بعل» يود الاحتفاظ به لينفقه على أعوانه وشعبه .

وإذا كان الذهب هو سبب الخلاف بين «يم» و «بعل» فإننا نفضل التفسير التاريخي على غيره ؛ لأننا نعلم يقيناً : أن سبب القتال والحروب قديماً وحديثاً وفي كل العصور هو السعي لامتلاك خيرات هذا العالم . هذه الشروح الثلاثة : فضائية وجغرافية وتاريخية - وربما تفاسير أخرى - تمثلت بالتوالي في أدمغة شعراء «فينيقية» ومفكرها . والخلاصة : إن هذه القصص كانت سهلة الفهم عند القدماء وعسيرة التناول عندنا ؛ لأنها كانت عندهم حية مفهومة من الجميع .

أهذا ماجال في خاطر «رينان»^(٨٢) عندما تكلم عن ميوعة الميتولوجية القديمة وعن تناقضها؟ وليسمح لنا «رينان» أن نتساءل : أين هذه الميوعة وأين هذا التناقض في الميتولوجية القديمة أو في الشروح التي نقدمها اليوم .

(٨٢) رينان في كتابه : دراسات في التاريخ الديني - المؤلف .

الأسطورة المصرية عن عشتارت وإله البحر

لن نخرج عن الموضوع اذا ماتكلمنا عن قصة حفظتها لنا ورقة بردي مصرية . وهي - لسوء الحظ - ناقصة . وعرفت باسم اسطورة «عشتارت» ويعود تاريخها إلى السنين الأخيرة من دولة الفراعنة الثامنة عشرة .

وعندما نشرت هذه الورقة عام ١٨٩٩ كان الناس يعرفون بأن المصريين قد اقتبسوا «عشتارت» الربة الكنعانية وتبنوها كما تبنوا غيرها من آلهة آسيا - منذ حكم الهيكسوس دون ريب - . فمنذ احتل جنود «أحموسيس» الأول وخلفائه الأراضي الفلسطينية والسورية أدخلت إلى مصر الإلهة «عشتارت» وعبدها . لقد استقبلها آلهة «مفيس» بترحاب وجعلوها ابنتهم أو إحدى بنات الإله «فتاح» . ونضيف إلى ماجاء في ورقة البردي بأن «عشتارت» - في مصر - كانت حليفة إله البحر المعروف باسمه الكنعاني «يم» .

جاء في الورقة : ان الاله «يم» عندما دخل أرض مصر أظهر - عند وصوله - غضباً عارماً وحدةً شديدةً وهدد بتدمير كل شيء وأنه سيغمر السهل والجبل بأمواجه . إنه يريد أن يفرض سيطرته على جميع الآلهة . وأوشك هؤلاء على الاستسلام ، فتدخلت عندئذ ربة المحاصيل «إيرنولت» وحاولت بشتى الطرق أن تخفف من تجبره فقدمت له الهدايا المختلفة : الفضة ، الذهب ، اللازورد . ولكنها فشلت في كل محاولاتها فاستنجدت «بعشتارت» . وانتهى هذا الموقف الحاد بالزواج أو بتوحيد «عشتارت» وإله البحر .

هذا وإن كانت الوثيقتان - المصرية والكنعانية ولاسيما المصرية - مبتورتين كثيراً فمن المؤكد انهما شرح لموضوع واحد . ونقول - بالقاء نظرة عابرة على أسماء الشخصيات - بأن الأصل كنعاني بحث . وإذا كان المصريون أخذوا الفكرة العامة للقصة عن الكنعانيين فلقد صاغوها كما شاءوا . وحضور ربة المحاصيل

والحصاد المصرية في الأسطورة يكفي للدلالة على أنهم لم يجمدوا على رواية القصة التي سمعوها - ولاشك - من أفواه البحارة الفينيقيين أو من أفواه تجار صور وصيدا أو أوغاريت^(٨٣) عندما نقلوها إلى لغتهم .

ومن الملحوظ أن أكثر المشاهد - إن لم تكن كلها - المعروضة في القصص الشعبية لدى مصر القديمة، جرت كلها في آسيا ، وإذا ما أخذنا هذا الاسم (آسيا) بالمعنى الضيق فقد تمثلت في الولايات الآسيوية التابعة لامبراطورية الفراعنة - كما حدث في عهد الدولة الثامنة عشرة - ويكفي أن نذكر أحداث قصة الأخوين ومغامرات «سينوحيت» والاستيلاء على «جوبيه»^(٨٤) . ولكن أسطورة «عشتارت» تشذ وحدها عن ذلك ، لأن حوادثها جرت في وادي النيل مع أن شخصياتها الذين قاموا بتمثيل الأدوار الهامة هم آلهة كنعان . والمهم أيضاً والواجب إيضاحه : إذا كانت مصر قامت - في حقل الأعمال الخيالية - باقتباسات عديدة عن فينيقية فإن ميتولوجية كنعان لم تأخذ أي شيء عن المصريين والبابليين وذلك إذا ما حكمنا أساطير «رأس شمرا» ، طالما هي النصوص الوحيدة والأصيلة التي تركته لنا فينيقية في العصور القديمة .

ومن المناسب أيضاً أن نذكر بأن البحر وأشياء البحر لا تشغل الا مكاناً بسيطاً في تلك القصائد . مع أن سكان «أوغاريت» يعيشون على الشاطئ . ومن الثقة بأنهم كانوا يملكون أسطولاً وأنهم كانوا يقومون برحلات طويلة ، كما كانوا يرون السفن المرابطة في مينائهم ويرون بحارة غرباء من مصريين وإيجيبيين وقبرصيين . وكلهم يحب القصص الجميلة ويرغب في سماعها ، فكيف اذن حدث : من ان الملحمة الفينيقية لم تؤثر على «الأوديسا» ولو بشيء تافه . وهذا بعكس ما كان ينتظره «فيكتور بيرارد» .

لاشك أن تلك القصائد تعود لعهدٍ لم يكن الفينيقيون فيه قد نازعوا

(٨٣) في القصة المصرية، لم يظهر إله النهر مساعداً ليم كما في قصة رأس شمرا . والحقيقة اننا لانملك الا النُتف القليلة من الأسطورة المصرية . «المؤلف» .

(٨٤) جوبي يافا المدينة الفلسطينية . «المغرب» .

الكريتين على سيطرة البحر المتوسط ، أو لأنهم اكتفوا بحراثة حقولهم ، كما قال فولتير : بدؤوا بحراثة أرضهم قبل أن يبنوا السفن ويذهبوا للبحث عن جديد في ما وراء البحار .

وبالنسبة فان سوربي القرن الرابع عشر عرفوا كيف يدفعون الغزاة عن ممتلكاتهم . وقصيدة «يم» - ولها قيمتها التاريخية - شاهد على مانقول . انهم لا يفكرون بالاستيلاء على مال الغير، ولا يهتمون إلا بالمحافظة على حياتهم - وقتية ولكنها نفيسة - التي قدمتها لهم الآلهة .

بعل وإله الموت

لقد ظهر «بعل» في قصيدة «أمير البحر» محارباً ومستعداً دوماً للدفاع عن أرضه - مسقط رأسه - . أما في هذه الملحمة الشعرية الكبيرة - دعاها الأوغاريطيون باسم «بعل» لاغير- فاننا نراه يواجه خصماً ومنافساً أشد وأقوى من «يم» . وهو «موت» أي «الموت» وبين أيدينا قطع هامة منها .

لسنا هنا بصدد ملحمة لها خيالها وإغراقها . ولكن بصدد ميتولوجية زراعية بحتة . وعرفنا مما سبق أن «بعل» كان يقاتل وحده وقليلاً ما كانت أخته «أنات» أو «عنات» العذراء تشد أزره . أما هنا فإننا نشاهد تحالفاً وثيقاً بين الأخ وأخته لا لخيرهما بل لخير جميع الكائنات التي يجب الحفاظ عليها والدفاع عنها لدى أي هجوم يقوم به عدو شرس هو «موت» .

لم نجد في علم الرسوم ولا في النصوص المعروفة أي شيء يدل على أي هيئة أو شكل كان الكنعانيون يمثلون «إله الموت» . كما اننا لم نجد رسماً واحداً للآلهة «عانات» . إذ كل الصور التي جمعت في رأس شمرا لا تمثل إلا «بعل» - صورة شاب مقاتل - لأنها كلها على نمط واحد ومن طراز واحد . ولكن أين رسم «بعل» وعدوه «يم» أو «بعل» في عراكه مع «موت»؟ لم يقع لنا أي شيء من هذا؛ ولم نعرث إلا على عمود أقامه «ماميا» المصري في أحد محاربي «أوغاريت» .

وقد نُقِشَ عليه صورة «بعل» مع كتابة هيروغليفية . وهذا النصب يختلف كل الاختلاف عن غيره من الرسوم التي تمثل هذا الإله ، فنراه هنا واقفاً وبيده صولجانه . بينما نراه في بقية الرسوم حاملاً سلاحه ، مستعداً للقتال .

وكلمة « بعل » صفة لا اسم ومعناها «السيد أو المولى» . أما اسمه الحقيقي فهو بلاريب «حَدَد» أو «تموز» . أما اسم «عانات» فيبدو أنه اشتقاق من كلمة «عين» ومعناه «نُبْع» . ويوجد بين آلهة «أوغاريت» إله آخر اسمه «أَنْ» ولكنه لا يمثل أي دورٍ في مختلف مشاهد هذه الميثولوجية ؛ وربما اكتشف دوره فيما بعد .

الإلهة «عانات»^(٨٥)

ليست «عانات» أخت «بعل» فحسب بل هي - كما يبدو - عشيقتة أيضاً . ولبعل ثلاث بنات : «الصاعقة» و «الندى» و «الأرض» . ولقد عرفنا من بعض نصوص العهد القديم (الملوك الأول الاصحاح ١٨)^(٨٦) بأن بعل هو إله الجو وسيد المطر الذي يغذي التربة . وفي قصائد رأس شمرا يُنعت «بفارس الغمام» . وهذا يعني أنه كان يسكن في تلك المنطقة المتوسطة بين السماء والأرض . فهو إذن أسمى من عالم البشر مع أنه قد قضى فيه - عالم البشر - قسماً كبيراً من حياته إبان تمريناته .

هل كان «بعل» ابن «إيل» البكر؟ لانؤكد هذا ، ولكن من الواضح أنه لم يكن الابن المفضل بل بالعكس . فمنذ البداية حتى النهاية نراه والإله الأعلى على طرفي نقيض . فما السبب؟ هل ارتكب بعل ذنباً؟ أو هل يحسده إيل؟ وهل

(٨٥) لقد فضلنا أن نكتبها «عانات» بالعين لأن اسمها مشتق من عين وبالتالي المبسطة لا المربوطة لأنها ساكنة الأخير . «العرب» .

(٨٦) الاصحاح بكامله يتحدث عن النبي «إيليا» وأبناء «بعل» فذاك يدعو «يهوه» والآخرين يدعو «بعل» لإنزال المطر . وانتهى التحدي بفوز «إيليا» وهطل المطر عند دعائه . «العرب» .

يعرف هذا مقدما بأن «بعل» سيخلعه عن عرشه ويحتل مكانه في ادارة الكون؟ وهل يقوم بأعماله المعادية لبعل ليؤجل هذا الحدث الخطير؟ ولذا يسعى ويعارض بكل قواه مشاريع «بعل» الذي تسانده «عانات» العذراء بعاطفتها وحبها .

لم يحدث بين «بعل» و «موت» في بادئ الأمر إلا مناوشات بسيطة . فمنذ التقيا لأول مرة عبس كل بوجه الآخر كثورين وحشيين ثم ركضا كحصانين في حلبة ثم عضا بعضهما كأفعوانين . ولكن - قال الشاعر - إذا كان «موت» قوياً فان «بعل» قوي أيضاً . وعاقبة المعركة تظل غير حاسمة .

نستطيع أن نتنبأ بأن المنتصر سيكون «موت» ولكننا نخاف من هذا التنبؤ. وطال العراك ، وتدخلت «عانات» وأجبرت «موت» أن يقدم كدليل على وفائه الغذاء والشراب اللذين يحتاجهما «بعل» مثل بقية الآلهة ومثل جميع الكائنات الحية . وتظاهر «موت» بالطاعة والخضوع لأوامر الإلهة ، إذ نراه يتفانى في خدمة «بعل» بينما يثير ضده جميع السكان المجاورين حتى خدم الآلهة أنفسهم .

ولما علمت «عانات» بالأمر استشاطت غضباً وانزلت الضربات المتوالية . فقتلت أولاً «أبناء المدينة»^(٨٧) ثم أجهزت على كل حي «على شاطئ البحر» وأخيراً «بشر الشرق» . ولانعرف معنى هذه التعابير بوضوح .

وعندما انتهت هذه المجزرة - التي وردت بقليل من الكلمات ، رأت «عانات» بارتياح شديد ترتفع عند قدميها كومة من الرؤوس التي قطفتها وفوق رأسها تتطاير الأيدي التي بترتها كغمامة من الجراد تموج في الهواء . فجمعت «عانات» الرؤوس والأيدي وكدستها في جراب حملته على ظهرها .

وبقي مجرمون ومتهمون آخرون ، مجرمون كبار يسكنون في «بيت عانات» أو في هيكلها وهم سعاتها وجندها الذين حرفهم «موت» عن واجبهم .

(٨٧) في فلسطين كثير من المدن التي تحمل اسمها مثل «قريات أناة» و «بيت أناة» (بيت يعني هيكل) والأولى تقع في أرض نفتالي على مسافة متساوية بين صور ووادي الاردن . «المؤلف» .
والثانية قرية من جبل الزيتون قرب القدس . «المعرب» .

وبما أنه لا يوجد لديها سلاح آخر فاستعانت بأثاث بيتها : المناضد والكراسي
والمناضد الواطئة ، وطفقت ترضخ بها رؤوس المتمردين ولم تتوقف حتى
شبعت . وهامي تغوص حتى ركبتيها في دم ضحاياها . فابتهجت من كل
قلبها . ولناخذ عبارة الشاعر القوية : « لقد امتلأ كبدها ضحكاً وقلبها فرحاً » .
وأخيراً غسلت يديها من الدم الذي سفحته أواجاً .

هذه هي «عانات» الثائرة المنتقمة لشرف «بعل» - لقد كان شرفه في مهب
الريح . - وهنا لا بد لنا من أن نذكر بأن المصريين زمن غزوهم ومعاركهم الكبيرة
- عهد تحوتس ورعمسيس - قد اتخذوا هذه الإلهة الكنعانية المتوحشة « ملكة
حروبهم » .

وربما كانت معرفتهم لها في عهد غزو السوريين - الهيكسوس - لمصر ،
إذ أدخلوها عام ١٧٥٠ ق.م إلى الديار المصرية . وعلى كل حال فقد استقبلت
خير استقبال على طول ضفاف النيل ، وكان لها هيكل خاص بها في زمن
«تحوتس» الثالث في «طيبة» عاصمة مصر نفسها . ونعرف أيضاً أن «ساتي»
الأول مؤسس الدولة الثامنة عشرة أطلق على جياده العزيزة وعلى التي قرنها إلى
عربته الحربية اسم «عانات راضية» . وأيام حكم رعمسيس الثاني - ابن ساتي
الأول - في القرن الثالث عشر، ظهرت «عانات» كحارسة لفرعون وأسرته
وامتدت سلطتها حتى أصبحت حامية مصر كلها . وكان اسم ابنة «رعمسيس»
المفضلة «ابنة عانات» وهكذا أضحت هذه الإلهة الفينيقية الأصل مصرية
ومثلت في مصر جالسة على عرش ممسكة بيدها اليمنى رمحاً وبالثانية فأساً
حربية . وكان رعمسيس في المناسبات الشعبية أو عندما كان يتخذ قراراً يتعلق
بمستقبل شعبه أو امبراطوريته ، يتהל «لعانات» ويستشهدها . وكان لا يطلب
من آلهة مصرية بل من «عانات» المنتصرة كشاهد على عمله ونيته .

ولدى المصريين إلهة تشبه «عانات» ، هي «سيكهيت» لها رأس لبوءة .
ويقولون في بدء الزمان كان الرجال يعملون مثل الآلهة فتأمروا على الإله «راع»
(الشمس) . وعند ذلك قامت «سيكهيت» وبطشت بالتمردين وقتلتهم طيلة

نهار كامل . وعند المساء ، ألقى «راع» نظرة على المذبحة فأخذته الشفقة ، وقضى أن يُترك الباقون - الذين افلتوا من المجزرة - أحياء . وبالدم الذي كان يغطي الأرض خلط جعةً (بيرة) مع عصير اللفاح^(٨٨) . وفي الصباح الباكر عندما استيقظت «سيكهيت» من نومها شربت من هذا الخليط المحلى إلى درجة ما ، فسكرت حتى نسيت كل شيء .

والأسطورتان : أسطورة «سيكهيت» وأسطورة «عانات» ، تتلاقيان في بعض الأحداث . ولكن الفرق كبير بينهما . لقد عاقبت «سيكهيت» المتمردين ودامت المجزرة نهراً كاملاً ، ولم يتكرر هذا العمل بينما «عانات» قامت بمعركة طويلة الأمد فهي عبارة عن سلسلة متقطعة من الصراع . وغاية الاثنتين واحدة هي «دغم سيطرة بعل»^(٨٩) .

فتح جبل الشمال

جزمت «عانات» أمرها ، في بعض الأيام ، على أن تغزو جبل «صافون» أي جبل الشمال لأن سفوحه تُخبيء المعدن الثمين الذي نسميه الذهب ويسميه الفينيقيون «خاروس» والاغريق «كُريزوس»^(٩٠) . وللاستيلاء على هذا الذهب لابد «لعانات» أن تحارب الإلهين «يَم» و «نهر» أي البحر والنهر . ولكن في طريقها ستصطدم بكائنين رهيبيين كُتب اسمهما: ت ن ن Tnn ول ت ن Ltn^(٩١) . فالأول هو التنين الذي ورد ذكره في أسفار العهد القديم الشعر؛ والثاني يجب أن نقرأه «لوتان» بدون شك ، وليس

(٨٨) اللفاح ثمر شجرة عريضة الأوراق ، وهو ذورائحة كريهة ، كان القدماء يستعملون عصيره في السّحر . «المعرب» .

(٨٩) «بعل» عند الفينيقين هو «راع» عند المصريين . «المعرب» .

(٩٠) «قرب» «خاروس» من «كُريزوس» «المعرب» .

(٩١) يجب أن لانسى أن ليس عند الفينيقين حرف الألف الطويلة والمقصورة - «المعرب» .

الا الشكل الأول لاسم «ليفياثان»^(٩٢). وقد جاء في المزمور الرابع والسبعين بأن «للفياثان» عدّة رؤوس. وفي رأس شمرا «للوتان» سبعة رؤوس^(٩٣). وإذا كان أخيراً في سفر أيوب أحال الله «ليفياثان» إلى العجوز بوضع عود من الخيزران في أنفه وبثقب منخريه بكلابة، ففي قصيدة «بعل» كمت «عانات» «لوتان» حتى لا يصرخ. واننا لنستغرب من هذا التشابه بين الميتولوجيا وبين التوراة. الحق يقال ان هذا التقارب عجيب.

وهزم «تائين» و «لوتان»^(٩٤) وأصبحت الطريق إلى الشمال مفتوحة أمام «عانات». فواصلت هذه سيرها يرافقها «بعل» أخوها وكانت ترشده سواء السبيل. وسرعان ما استحوذوا على الكنز وعلى الجبل في نفس الوقت. وأصبح منذ الآن جبل الشمال المقرّ الخاص «لبعل».

بيت بعل

أصبح «بعل» يملك الذهب والفضة - وإن كان المعدنان قد جاءاه من منطقة بعيدة - وينقصه الآن بيت، فيستطيع أن يترك حياته المتشردة القلقة التي فرضها عليه أبوه الإله إلى الأبد.

وهذا - ولاريب - ما كانت تصبو إليه «عانات». وقد ثارت الطبيعة كلها بدورها ضد هذا الظلم الذي ذهب «بعل» ضحيته. فحفيف أوراق أشجار الغابات وشكوى الأمواج المتواصلة التي تتكسر على الحصا وأسرار النجوم التي

(٩٢) مر معنا ذكره. وجرى اسمه للدلالة على شيء هائل جداً ومتوحش جداً. وهو يمثل الشيطان «المعرب».

(٩٣) العبارة في التوراة (المزمور الرابع والسبعين): كسرت رؤوس التناين على المياه، أنت رفضت رؤوس «لوتان» جعلته طعاماً للشعب لأجل البرية «المعرب».

(٩٤) هذان الماردان هزما وأحبالا إلى العجز لا بيد إله بل بيد إلهة عنراء. ونرى أن هذا لا يرى في العالم الكنعاني فحسب بل عند غيرهم. «المؤلف».

تبادلها أثناء الليل مع المحيط واحتجاج الكون؛ فجميع الموجودات كلها نائرة ضد طغيان الإله العالي نحو الإله الشاب .

أمام ثورة العناصر العارمة وجواباً على هذه الضجة التي ارتفعت من كل مكان قرّرت «عانات» أن ترى الإله «إيل» لتسأله وترجوه أن يرفع الحظر الذي فرضه وكان من عاقبته إبعاد «بعل» عن المجتمع الإلهي .

ذهبت «عانات» ضاربة الأرض برجلها واجتازت بخطوات ثابتة المساحات الرحبية التي تفصل عالم البشر عن عالم الآلهة لتصل إلى تلك البلاد حيث الأنهار تصب في المحيط ، مقر الإله الأب .

ما إن رآها «إيل» تتقدم نحوه حتى ارتفع صوته وتلفظ بقسم كبير - لم يزل معناه الحقيقي غامضاً علينا - « أقسم بالمجالس السبعة المقدسة » . ثم دعاها لتعرض عليه سبب مجيئها . ولكن «عانات» الإلهة الجريئة تتردد هذه المرة بالجواب ، وأخيراً كان حديثها استعطافاً طالبة كرم نفس أبيها ووعدته أن تعيد له شبابه ، أو على الأقل أن تعيد لشعره ولحيته صباغها الأول - وكان أحمر مثل الدم - وإن كانت «عانات» تقدم وعداً كهذا ، وإن كانت في موقف يتحتم عليها القيام بهذا الوعد ، فذلك بمقتضى ما كان يسمى «أروكات» وهي كلمة معناها «امتداد» . ويبدو أن هذه الكلمة مختصرة من عبارة «امتداد الأيام» أي الخلود . (إذن أروكاته = امتداد أيامه) .

كان من المفروض أن لا يظهر الإله «إيل» بمظهر القاسي العديم الرحمة أمام تملق الإلهة «عانات» في مطالبيها . ولكنه إله ذو تجربة كبرى فهو لا يعدُّ بسرعة ولا يلقي كلامه جزافاً . ولذا أجابها بعبارتين قصيرتين : « أنا واثقٌ يا ابنتي أن لا واحدة من الإلهات أمهر منك . ماتبعين حقاً ، قولي لي »^(٩٥) .

وتهيأت «عانات» لتكشف عما تريده تماماً . ولكنها توقفت في بادئ الأمر ، انها تود أن ترى استقبال الإله مشجعاً لها . ولذا اكتفت بأن قدمت

(٩٥) إن «عانات» أو إلهة أخرى تشبهها ، ستحمل يوماً لقب «إيريك هايم» ومعناه «طيلة الزمن» . ومن هنا جاء أصل اسم هيكل صقلية الشهير وكان مكرساً «لزهرة إيريكس» «vénus d'Érix» أو «الزهرة الإيريسينية» . المؤلف

خضوعها ثانية بهذه العبارات : « قرارك الحكمة نفسها ، وأنا متأكدة انك تملك الحياة الدائمة ، إن الحكمة خاصة بك وان قرارك دستورنا » .

وهكذا تخضع «عانات» لأمر الإله ، قبل كل شيء . ولها الثقة النامة به . وتأمل جيداً ان الحكم الالهي سيكون مطابقاً للحكمة وانه سيكون تعبيراً عن العدالة .

ثم ودون أن تضيع الوقت أعلنت بأن «بعل» هو الذي أرسلها . وقالت بأن بعل هو قاضينا وهو القاضي الأعلى^(٩٦) . وقدمت «عانات» للإله «إيل» هدايا «بعل» وهي أوان مختلفة فيها عطور ولاشك . وأخيراً صرّحت عن سبب مجيئها . ويكلمات سريعة ذكّرت بأن الآلهة - البعض منهم على الأقل - تأثروا من حالة «بعل» الغريبة إذ لا بيت يأويه مثل بقية أبناء «أشيرات» .

وضمّت «أشيرات» صوتها إلى صوت «عانات» . فركبت حماراً صغيراً^(٩٧) مزداناً وذهبت للقاء زوجها لتقدم له طلباً كانت قد اتفقت عليه مع «عانات» . فرضي الإله «إيل» أو - على الأقل - تركها تعمل .

سيساد بيت «لبعل» كبيت «يم» الذي بناه «كاشير» مهندس الآلهة . فكان الخطابون يقطعون أشجار الأرز من لبنان ومن حرمون ليعملوا جسوراً للسقف وخادمة «أشيرات» تخلط الطين - إذ من القرميد لامن الحجارة سيقام البنيان وهي عادة بابلية - .

وبعد ذلك صعد «كاشير» - فهو صائغ ماهر كما هو مهندس - نحو كوره (مشغل الحدادة) الواقع في الجبل . ثم أخذ كماشاته وصنع آلاف مئات الآلاف من الأواني الفضية والذهبية ، وبالحقيقة صنع الآلاف من الأواني الفضية ومئات الآلاف من الأواني الذهبية ، لأن الذهب في رأس شمرا أكثر من الفضة بعشر مرات .

(٩٦) كلمة Suffete كانت تطلق على القضاة العالين في قرطاجة وصور - «المعرب»

(٩٧) هو حمار كان يستخدمه «إيزيس» كمركوب له - كما كتب «أبولي» - «المؤلف»

انتصار « بعل »

وجمعت لوازم البناء وأصبحت جاهزة للعمل وانتهى البيت بسرعة ، وسيدشن بأبهة كبرى . والطقوس التي ستقام لهذه المناسبة تشبه تماماً^(٩٨) الطقوس التي احتفل بها الملك سليمان عند انتهائه من بناء الهيكل وتقديمه هدية لله .

وفي رواية أخرى لم يتم إجلاس « بعل » على العرش على جبل « صافون » ولكن على جبل آخر كتب اسمه « أم ر » Amr وهو بدون شك « أمورو » المذكور كثيراً في النصوص البابلية وهو موطن الأمورين في التوراة . ويبدو أن هذين الاسمين كانا مختلفين ولكن لمنطقة واحدة . « فأمورو » تعبير جغرافي أو تعبير في علم السلالات و « صافون » اسم شعري أو ميتولوجي للجبل المقدس .

إذن حصل التويج على جبل « أمورو » - كما تقول الرواية الثانية - وهناك جرى مسحُ « بعل » ، وبهذا المسح يصبح سيد العالم . وقد قام به (بالمسح) « الرفائيم » (انظر ماتقدم) الذين هم خدام الإله الشاب - في أسفار العهد القديم التاريخية - و « الرفائيم » شعب قديم وطنه فلسطين ولكنهم في كتب اسرائيل الشعرية وفي شواهد القبور الفينيقية في العصر القديم ، ليسوا إلا أرواح الذين تركوا الأرض أو ظلالهم .

وهكذا بفضل « عانات » أصبح « لبعل » بيت أنيق خاص به ، وأصبح الآن يستطيع أن يمارس سيطرته التي حرم منها سابقاً والتي كان يحلم بها مع أخته . ولكن - وكما هو مكتوب في قدر الإله الشاب - لم يكن هذا النجاح إلا قصير الأمد ، إذا ارتفعت ألسنة النار فجأة في القصر وفي لمح البصر أصبح رماداً .

من أشعل هذا الحريق؟ لاشك انه «موت» ، «موت» نفسه أو أحد أعوانه . لقد انتصر في دوره وفاز على بعل وكأنه فاز على الحياة . واضطر « بعل » أن يعود إلى وجوده القلق الذي كان يعيشه من قبل والذي أنقذته منه «عانات» .

(٩٨) الفارق بين الاحتفالين هو في رأس شمرا لم يستوعب الاحتفال الا بضعة سطور وفي التوراة اخذ فصلاً كاملاً (كل الاصحاح الثامن من الملوك الأول). « المؤلف »

موت « بعل »

هل رضي «موت» بما حدث؟ وهل يقف عند هذا الحد؟ وهل يكتفي بإزاحة «بعل» عن عرشه؟ لا ولسوء الحظ ، بل سيواصل انتقامه حتى النهاية .

يروون أن «بعل» خرج في بعض الأيام يمشي في السهل الرحيب وحده ، وبينما هو يقطع الأدغال اصطدم بشرذمة من الكائنات المفترسة تُدعى «الضواري» . وكان لهم قرون في جبهتهم مثل الثيران وسنام في ظهورهم مثل «الجاموس» ولكن كان لهم وجه إنسان ، وجه كوجه «بعل» نفسه - كما قال الشاعر - فظنهم الإله الصياد في بادئ الأمر أصدقاء أو إخوة له ، وخطر له أنهم ولدوا من غراميات الإله الأب مع خادمة «أشيرات» . فمثله مثل «إبراهيم» مع «هاجر» خادمة «سارة» التي ولدت اسماعيل في الصحراء . وقد ورد ذكر ذلك في التوراة (التكوين الاصحاح ١٦ والعبارة ١٢) بأنه متوحش مثل حمار وحشي^(٩٩) .

كم كان هؤلاء «الضواري»؟ ربما كانوا اثنين لاغير ، لأن الكلمات من نوع المثني ؛ والمثنى المذكور والجمع في رأس شمرا على صورة واحدة ، ولكن ألا يكفي هذا العدد أن يعيق الإله الشاب عن مواصلة طريقه .

وعلى الفور نشبت المعركة بين الضواري وبعل . وبدا هذا كالمتصر في أول الأمر ، فألقى أعداءه أرضاً ووطئهم بقدميه وأشبعهم ضرباً بكعبه . ولكنهم تغلبوا عليه بسرعة فسقط وغلِبَ «مثل ثور» .

هذا التشبيه «مثل ثور» كثير الورد . فمن قبل كان الضواري مثل الثيران بسبب قرونهم وها «بعل» يسقط بكل ثقله على الأرض «مثل الثور» . ولاشك مثل الثور الذي يضحي به الكاهن . وهذا ماأراده الشاعر وان كان

(٩٩) العبارة في التوراة : «إنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه» . «المعرب» .

لا يصرح به بل مرّ عليه بكل رزانة . ويجب أن يُعتبر «بعل» ضحية شبيهة بالتي تُقدّم قرباناً ؛ ضحية يقرها الموت والتي لا بد منها لأنها ضرورية .

وفي اللحظة التي سقط فيها «بعل» تُلَفّظ ببضع كلمات وكأنها صلاة

موجهة إلى « ملك العدالة » لأنها تنطبق تماماً على الإله «إيل» أبي الآلهة . ويبدو أن «بعل» تذكر قرار الإله . إذ لا يحدث شيء من خير أو شر إلا بإرادة الإله الأكبر . وما «موت» إلا آلة في يده .

قلقت «عانات» من سكوت أخيها وغيابه ، انها لم ترافقه هذه المرة - مع أنها كانت دائماً رفيقة دربه - فطفقت تبحث عنه . فجابت الجبال وجابت الأودية . ولما وجدت الجسم الملقى ، كان أول حركة أبدتها - وقبل أن تعبر عن الألم الذي يعتصرها - أن عادت للقاء أبيها الذي كان يجهل واقعة الحال ، أو يتظاهر بأنه يجهلها وصرخت به قائلة : « مات «بعل» ، مات سيد الأرض ، تعال معي لترى الذي كان جمال العالم والذي هو اليوم لقي في ميدان المذبحة . » .

فهبط عندئذ الإله الشيخ ، نازلاً درجات العرش واحدة واحدة ، كان ينزل ويتوقف لدى كل خطوة ، وكما هو وارد في الأسطورة : « وجلس على الدرجة وجلس على الدرجة » . . وهذا يدل على أنه كان يجلس على درجات العرش بالتوالي . ولما وصل إلى أسفل ، جلس أرضاً ليأخذ التراب وينثره على رأسه .

هذا عمل معروف عند الشرقيين ، ولكن العادة : أن الأحياء ينثرون التراب على رؤوسهم دليلاً على حزنهم العميق ، وهنا في قصيدتنا ، أمير الآلهة هو الذي يقوم بالشر ليبرهن عن أساه .

أما «عانات» فقد بكت شلالات من الدموع ، من الدموع الصادقة بكل تأكيد . والعبارة المستعملة هنا تستحق البروز . فالشاعر يقول من «إن الإلهة شبت من بكائها كما لو كان خمرًا» . وربما يعني هذا أنه كان في ألم «عانات» شيء من اللذة أو من الأمل الكبير .

ولم تكن وحدها في هذه المأساة الرهيبة ، بل كانت إلى جانبها إلهة الشمس التي تدعى «شاباش» تساعدتها وتواسيها . والتفتت إليها «عانات» وقالت : ارفعي جثة « بعل » على كاهلي . . ونقلت الإله القليل بجهد إلى كبير ، إلى قمة «جبل الشمال» الذي شمع بأنفه عندما أصبح منذ حين مركزاً لقصر أنيق . وعندما دفنته أقامت على قبره قرباناً ضخماً يسمح لأخيها أن يقضي حياة هادئة خلال الأشهر الطويلة التي يمضيها بين أحضان الأرض .

لقد قرّبت سبعين جاموساً وسبعين ثوراً وسبعين خروفاً وسبعين وعلاً وسبعين تيساً وسبعين حمراً . فكان المجموع أربع مئة وعشرين حيواناً . وهذا أكبر قربان ذُكِرَ ووُصِفَ في قصائدنا .

وما إن انتهت من تقديم هذه المذبحة حتى ذهبت لترى والدها . وكانت « أشيرات » - أم الآلهة - واقفة إلى جانبه وأخبرتها أو ذكرتها بعبارة فيها عظمة بأن «بعل» مات .

وطلب «إيل» من «أشيرات» بأن تعطيها دون إمهال أحد أبنائها ليحكم بدلاً من الفقيد . وكانت «أشيرات» هذه تعرف ان السلطة - سلطة «بعل» التي كان يتمتع بها - يجب أن تذهب لأحد الأبناء شريطة أن يكون مُلمّاً ببعض العلوم - وربما كان «بعل» يجهل بعض هذه العلوم - وقد أشير بكلمة «ي ل ه ن» - ونحن بدورنا لانعرف معناها - وكان الجدل وجيزاً جداً وإن جرى بحماس . وانتهى إلى تعيين أحد الأبناء - ويسمى «عشتار» بديلاً عن «بعل» . ويجب أن نقرب هذا الاسم «عشتار» من اسم الإلهة «عشتار - عشتروت» . ونحن نعلم بأن «عشتروت» أو «عشتار» لم تكن صديقة «بعل» . إذن لنتساءل : هل هي عشتار نفسها أم إلهة أخرى كان «بعل» أمين مستودعها ؟ وليس هذا إلا افتراض وافتراض شارد لأن غموض النص والثغرات المعترضة والإيجاز الكبير ، كل هذا لايسمح لنا أن نقدم المعنى جلياً .

ولما علمت «عشتار» بهذا الانتقاء أعلنت قبولها بكلمتين ورضيت أن

تجلس على العرش الذي تركه «بعل» شاغراً . وما إن استلمت هذا المنصب حتى أمرت بأن تدار الكؤوس على من حولها . ولكن النص هنا مبتور ، ولاذكر لعشتار في القطع الآتية .

« عانات » تنتقم لموت « بعل »

كان أمناء « عشتار » يعرفون بأن موت بعل ليس إلا وقتياً . إذ منذ القدم كان « بعل » يختفي ستة أشهر في كل سنة ثم يعود إلى النور . ومع ذلك برغم التجربة أو العادة المعروفة فقد كان أمناء «عشتار» في نهاية كل شتاء يقلقون ويتوجسون وربما كانت «عانات» نفسها عرضةً لهذا القلق والوسواس .

وعلى كل حال ، فالسؤال يطرح نفسه كل سنة : هل نعرف ان نهاية العالم قريبة؟ - إذا تأخر الربيع - . وإذا نُجِنَتِ الكارثة أو تأخر وقوعها فمن الاحق بالشكر ، إذا لم تكن الإلهة «عانات» .

ان مبعث «بعل» لا يحدث قط بصورة آليّة كما يقال . ولن يكون قط فورياً . ولايكفي سفح الدموع عليه ولا تقديم القرابين على ضريحه . فمن المحتمل اللازم مطاردة القاتل أو مطاردة الذي هياً الشرك ونصّبه ليقع فيه .

إذن ، ذهبت «عانات» تبحث عن «موت» ولما عثرت عليه أوقفته وصرخت في وجهه : « أعدْ إليّ أخي » . وبدا « موت » مندهشاً متظاهراً بالاستغراب فأجاب بغياء : «ماذا تسأليني » فكأنه يقول لها : «هل أنا حارس أخيك؟» وهكذا حاول «موت» أن يبريء نفسه ليلقي بالتهمة على غيره وان يجعل السامع يعتقد انه لاناقة له ولاجمل . ولكن «عانات» تعرف من هو غريمها وأعادت الطلب . ولكنها لم تُلَقْ أسئلةً في هذه المرة فالوقت ليس وقت كلام . إن «موت» هو المجرم ويجب أن ينال العقاب دون تأخير . فأمسكت به وشطرته إلى شطرين بضربة منجل ثم أحرقت جثته وغربلتها ثم جعلته بين

حجري رحى وطحنته وألقت ببقاياها كطعام للطيور^(١٠٠) . وهكذا فان «موت» لم يكن خالداً فهو اذن مثل «بعل» وسيحرم من الدفن .

لهذا الفصل أهمية خاصة لأنه يُظهر في بضع كلمات حقيقة طبيعة «موت» وبالمقابلة طبيعة «بعل» الحقّة . لقد أخذت «عانات» «موت» وشطرته إلى قسمين بضربة منجل ثم غربلته وطحنته بين حجري رحى ، ذلك أن «موت» أو إله الموت قد تمثل - دون شك - بشكل إنساني . فهو يرمز إلى سنبل القمح ، السنبل التي يقطعها المنجل ، اذا ما أردنا صنع الخبز الذي هو قوام الحياة ، اذن «فموت» هو إله الصيف وبفضله تنضج المحاصيل ويختفي بعد الحصاد مباشرة ، والحصاد لا يهب الحياة إلا بعد أن يقطع .

واشترك هاتين الفكرتين في الموت والحياة ، في الحياة التي تنبثق من الموت ، الموت الخالق للحياة قضية عامة ، ليس في فينيقية ولا في رأس شمرا فحسب بل نراه في كل مكان من العالم ، كما أشار بذلك السر «جيمس فرازر» .

بعث « بعل »

والآن مات « بعل » ودفنته « عانات » بيديها ، ومات «موت» من ضربات الإلهة الحاقدة .

ولكن يجب أن لا تمتد هذه الحالة طويلاً ، لأن العالم لا يستطيع أن يبقى محروماً من وصييه . ولذا سوف يتبادر إلى الذهن بأن «بعل» سيولد قريباً ، وأن الأرض ستتغذى بهاء المطر وستصخب الأنهار بأمواج من العسل .

(١٠٠) في القرن العاشر من الميلاد ، كان سكان حرّان ، وكانوا وقتئذٍ وثنيين - في ميزوبوتاميا العليا يُقيمون في منتصف تموز احتفالات تبكي فيها النساء على «تاووز» (يعني تموز) الذي سحق مولاه عظامه وفزأها في الرياح الأربعة . ولاشك ، ان هذا الحادث هو إحياء لمعتقدات سابقة . ولكن يجب أن نلاحظ ان «تاووز» حران لم يسقط من طعنات حيوان وحشي مثل «بعل» أو مثل «أدونيس» . إن مولى «تاووز» استعمل نفس الأسلوب التي استعملته «عانات» في قتل «موت» في أساطير رأس شمرا الشعرية .
المؤلف .

وكان «إيل» أبو الآلهة أول المبتهجين كما كان أول المحزونين لموت «بعل» وأول من لبس السواد حداداً عليه . ولما وصله الخبر كان جالساً على عرشه - حسب عادته - فطفق يرفس برجليه ويضحك من كل قلبه ويصرخ قائلاً : « أستطيع الآن أن استريح ، طالما أن «بعل» حيٌّ وطالما أن سيد الأرض يعيش » .

وهكذا ، فإذا كان الإله «إيل» أبو الآلهة قد سرَّ من قيام «بعل» من بين الأموات ، فماذلك إلا كما قال في نفسه بأنه يستطيع أن يستريح ويجب علينا أن نستنتج من تصريحه هذا بأن غياب «بعل» زاد في متاعبه وأعماله . ألم يعين هو بنفسه بعد أن سمع نصيحة «اشيرات» خلفاً له أو بديلاً عنه وهو «عشتار» أحد ابنائه ، لقد رضيت بطيبة خاطر أن تقوم بهذا الدور الصعب الخطر؟ ولكن ، ربما لم تكن «عشتار» محلاً للثقة ولم تستطع أن تقوم بالمهمة التي أوكلت إليها ، فحدثت مضاعفات جديدة ، كان الجميع في غنى عنها .

ومهما كان الأمر فان «بعل» حي . وقد أعلنوا ذلك وكرروه في كل مكان ولكن لم يره أحد . فتملك القلقُ النفوس . أهو خبر كاذب ؟ إذ كانوا يرددون ويتساءلون : أين «بعل» ، أين سيد الأرض ؟ إننا في حيرة تامة^(١٠١) . . . لماذا هذا التأخر؟ ألم يُبعث «بعل» من بين الأموات ؟

ربما كان شعراء كنعان يريدون أن يعبروا بأن سقوط الأمطار - التي هي دليل قاطع على عودة «بعل» قد انقطع وامتد الصحو ، وماسقط لا يكفي لاختضار الحقول .

وبناءً على هذه الظنون أرسل الإله «إيل» الإلهة شَمَش (الشمس) تبحث عن «بعل» . ولا أحد غيرها - وهي التي تسمى «نور الآلهة» يستطيع

(١٠١) لقد أعلن الخبر الجديد بواسطة حلم . ورؤى الحلم مرتين على التوالي . وهذا التكرار - على ما يبدو - مخالف للشريعة ، فاستنتجوا من ذلك أن الكاتب قد أخطأ أو كما يقال وقع التباس . ولكن من المحتمل أن التكرار كان مقصوداً وأن الشاعر أراد أن يشير إلى أن الحلم وقع مرتين في نفس الليلة أو في ليلتين متواليتين . «المؤلف» .

أن يكتشف المكان الذي اختبأ فيه . وذهبت يتبعها الإله . ستعثر عليه حتماً وستعيده إلى وجه الأرض . ولكن النص لا يسمح لنا أن نعرف كيف جرت الأمور .

ولاندري ولانستطيع أن نتصور - وقد قارناً هذه الأسطورة مع غيرها من نفس نوعها - بأية صورة ظهر الحماس على الأرض الواهية بعودة سيدها .

وهكذا ، فان «بعل» يرمز إلى الحياة التي تتجدد كل ربيع ، في الصيف يفتح الربيع ولكنه يذبل ويختفي في فصل الخريف . بعل حياة النباتات والنباتات سبب وجود الحيوانات والبشر وسبب وجود الآلهة أيضاً . لأن الآلهة لا يستطيعون أن يدوموا إلا من تغذية البشر لهم . فبماذا يستطيع البشر أن يُغذوا الآلهة إذا لم يكن هناك لحوم وحيوانات ؟ وأي شيء تسقيهم إذا ما فقد « دم العنقود » كما يقولون في فينيقية ؟

لماذا انقضت الأيام الجميلة بسرعة؟ ولماذا لاتدوم النباتات إلا بضعة شهور؟ ولماذا لاتنتج الأرض كل أيام السنة الأشياء الضرورية لحياة الكائنات ؟ تلك هي الأسئلة التي كانت تطرح هنا وهناك ، والجواب هو: لم يُرد « إيل » أبو الآلهة ذلك . وكذلك « موت » إله الموت أراد هذا . هكذا قرر « إيل » و «موت» باتفاق مشترك منذ بدء الأزمنة وللأبد . وإذا كان «بعل» ابن الإله فهو إله غير خالد ، وخلوده لا يكون إلا متقطعاً ومشروطاً .

إن الكائن السريع العطب بحاجة إلى المساعدة . وهذه المساعدة اللازمة لن تأتيه إلا من قبل أخته الكبرى «عانات» . فكان هذه هي الوجه المسيطر في كل هذه الأسطورة . إن «عانات» لاتمثل قوة الطبيعة بين قوات أخرى فحسب بل هي القوة الكاملة للطبيعة ، لابل هي روح العالم . ولكي تتوصل إلى كل ماتصبو إليه فهي لاتحجم عن شيء . فهي تقتل - كما رأينا - سكان مدينة بأسرها اذا اقتضى الأمر ، وليس هذا خبثاً منها ولانزوة فهي تمشي قُدماً نحو غاياتها ، وغايتها تأمين سلام العالم والعمل لمصلحته .

أدونيس

لم تعرف شخصية من شخصيات القصص الشعرية ، أو من أساطير الميثولوجيا كما عرفت شخصية «أدونيس». وإذا كان هذا الاسم شهيراً فإن الفكرة والأفكار التي تخطر في الذهن أو تتمثل فيه ليست محددة تماماً . ولذا ليس من السهل تقديم تعريف كامل له بوضع كلمات . ولقد برهنت هذه التجربة في حالة « أدونيس » وفي حالات غيره بأن التعريفات الموجزة لاتعبر إلا عن صفة أو صورة واحدة من صور الأشياء ، وربما لم تكن تلك الصورة هامة أو ربما كانت خاطئة .

ولكي لانخرج عن موضوعنا ، يجب أن نستشير أحد^(١٠٣) هذه المعاجم التي بين أيدينا . فماذا نرى تحت اسم «أدونيس»؟ اننا نقرأ: «أدونيس» كان شاباً اغريقياً ذا جمال باهر ، جرحه خنزير برّي بجرحٍ مميت فحوّله «فينوس»^(١٠٣) إلى شقيقة نعمان .

ليس هذا التعريف مغلوطاً كله بل ناقصاً . لقد نعت «أدونيس» بشاب إغريقي ، هذا حقيقي ، لأن الإغريق تبنوا «ادونيس» - ولاسيما نساؤهم - في «أثينا» منذ عهد «ألسيبيا دس»^(١٠٤) وليس في هذا الاسم من إغريقية الا نهايته «يس» . «فأدون» كلمة فينيقية معناها «السيد أو المولى» مثل «بعل» الذي معناه «السيد» . ومع ذلك فمظهر الاسم اغريقي مثل «إيزيس» . و «أوزيريس»^(١٠٥) المصريين وغيرهما . ولقد عرفنا أسطورة «أدونيس» من اليونانيين والرومان^(١٠٦) .

(١٠٢) هذا المعجم الذي استشاره هولاروس ، فنرى نفس العبارة في اللغة الفرنسية . «المعرب» .

(١٠٣) فينوس الزهرة - «المعرب» .

(١٠٤) قائد اغريقي تمتع بصفات لامعة ، وكان طموحاً فاسد الطوية - «المعرب» .

(١٠٥) ان هذين الاسمين ينتهيان بـ «يس» . وأكثر الكلمات العلمية لها هذه النهاية . «المعرب» .

(١٠٦) راجع : مذهب واعباد «أدونيس» تموز في مجلة الشرق التقليدي لفاي و «أدونيس والإله الذي يموت» لجيمس فرازر . - المؤلف .

أسطورة «أدونيس»

نلتقي لأول مرة باسم «أدونيس» وأسطورته عند شاعر كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ويدعى «بانيازيس» ، وهو اغريقي اسوي ولد في «هاليكارناس» مسقط رأس هيرودتوس^(١٠٧) ، ويقال إنه ابن أخ أو ابن عم أبي التاريخ . لم يكن «بانيازيس» شاعراً كبيراً وقد فقد ديوانه كله تقريباً ، وبين ماتبقى منه بعض أبيات تتعلق «بأدونيس» وهي جديرة بالانتباه .

يقول شاعرنا : إن «أدونيس» ولد من أميرة آشورية - يريد أن يقول «سورية» إذ لاشك انهم كانوا يخلطون بين الاسمين أو بين البلادين : «أشوريا» و «سوريا» وليست سوريا الا شكلاً مختصراً من «أشوريا» . - وعلى كل حال فان اسم هذه الأميرة «ميرها» (Mirra) .

وكان أبوه - وهو أبو «ميرها» - يدعى «ثياس» (Théias) . وكره الأب ابنته الكره الشديد فهربت منه والتجأت إلى الآلهة تطلب مساعدتها . وقبل الآلهة رجاءها ولكي يخفوها عن ملاحقة أبيها لها حولوها إلى شجرة أو شجيرة سميت منذ ذلك الوقت باسم «ميرها» المير أو المر^(١٠٨) . وبعد تسعة أشهر انشق لحاء هذه الشجيرة عن طفل ذي جمال أخاذ عجيب . فأخذته «أفروديت»^(١٠٩) وحبسته في صندوق أودعته عند الإلهة «بيرسيفون»^(١١٠) التي فتحت الصندوق - ولم تؤمر بتجنب فتحه - ولما رأت هذا الولد الرائع الجمال رفضت أن تعيده لأفروديت . فكان سبب عراك حاد بين الإلهتين ولم ينته الا بتدخل أبي الآلهة «زيوس»^(١١١) . ففضى بأن يبقى الطفل عند «أفروديت» أربعة أشهر وعند «بيرسيفون» أربعة ، وما بقي من السنة ، يكون «أدونيس» حراً يتصرف على

(١٠٧) مدينة قديمة في آسيا الصغرى وهي عاصمة مقاطعة «قاريا» على شاطئ الأرخيل «المغرب» .

(١٠٨) المر شجرة ذات صمغ ذي رائحة طيبة . وقد ورد ذكره مراراً في التوراة - «المغرب» .

(١٠٩) اسم يوناني لفينوس (الزهرة) ولعشروت الفينيقية . «المغرب» .

(١١٠) ربة يونانية ابنة «ديميتر» و «زيوس» وهي مليكة الحجيم - «المغرب» .

(١١١) «زيوس» عند الاغريق مثل «جوبيتر» عند الرومان و «إيل» عند الفينيقين - «المغرب» .

هواه وينتقي من يشاء من المتنازعتين ، فانتقى - كما يقولون - «أفروديت» . وهكذا يقضي أدونيس ثلثي السنة على وجه الأرض قرب إلهة الحب «أفروديت» والثالث الباقي يسكن في باطن الأرض أو في الأرض إلى جانب مليكة الجحيم (بيرسيفون) أي في عالمٍ يقطنه الموتى ولكنه المكان الذي تنضج فيه المواد التي تنبت القمح وجميع النباتات التي يتغذى بها الأحياء .

أما الأسطورة التي تحدث عنها «بانيازيس» فهي لا تشمل إلا على قسم من حياة الإله وهو نبذة من وجوده ولكنه تام . ومهما كان فإن القصة لا تخلو من فائدة لأنها تظهر بكل وضوح علاقة «أدونيس» بالشجرة وهي علاقة وثيقة جداً لأنها - بكل تأكيد - ذكرى لتقاليد قديمة تعود لعصرٍ لم يكن فيه أدونيس « إلهاً إنساناً » بل نسمةً تنعش الطبيعة كلها ، وتختلف قوتها (النسمة) باختلاف الفصول خلال سنة واحدة . وهذه النسمة أو هذه الروح - سمها كما تشاء . اتخذت منذ زمن مبكر - ونعتقد هذا - مظهراً طبيعياً أي جسماً . ووفقاً لطبيعة البلاد فهذه النسمة تتمثل بسنبلة تعطي الخبز أو بعنقود يقدم الخمرة أو بالشجرة التي هي أجمل نتاج للأرض المغذية . وبما أن الرواية التي كتبها «بانيازيس» من أن «أدونيس» ولد من شجرة نستطيع أن نؤكد ان تلك الرواية جاءت من بلاد الغابات .

وبعد زمن «بانيازيس» بمدة طويلة ، أي في قرن أوغسطس* ، تغنى «أوفيد»^(١١٢) بدوره «بأدونيس» في كتابه العاشر من «الاستحالات»^(١١٣) فإذا ماصدقنا الشاعر اللاتيني (أوفيد) كان «أدونيس» ابن ملك قبرص وليس ابن ملك آشوريا أو ابن ملك اليونان ، وولد من «ميرها» المحولة إلى شجرة والتقطته

(*) أوغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان العظماء ، استولى على جميع حوض البحر المتوسط وهزم انطونيوس وعشيقته كليوباترة . «المعرب» .

(١١٢) أوفيد من كبار شعراء اللاتين ، امتاز بعذوبة اللفظ وسلاسته وانسجامه - «المعرب» .

(١١٣) مجموعة شعرية لأوفيد مؤلفة من ١٥ كتاباً وهي أسمى وأجل الشعر اللاتيني تغنى بجميع الأساطير الميتولوجية - «المعرب» .

«عرائس الغابات» وأحطنه بكل ضروب الاعتناء حتى أصبح شاباً ، والتقت به «فينوس» مصادفة - وفينوس هي «أفروديت» ويسميتها الشرقيون «عشروت» فرأته يسطع بالجمال فصممت من وقتها على أن تهجر «الامبيرية»^(١١٤) وقد رأت ان السماء بأجمعها لاتساوي «أدونيس» وحده .

وذات يوم ذهب «أدونيس» للصيد ، في غابة ليست في قبرص بل في غابة فينيقية تسمى «لبنان» . فأوجست «فينوس» خيفة وحاولت بثتى الطرق أن تمسك به وتمنعه من الذهاب ولكنها باءت بالفشل . وهل كانت الإلهة تستطيع أن تمنع «أدونيس» عن القيام بعمله هذا؟ كان يجب عليها أن تدرك أن القضاء أقوى من إرادة الإلهة ومن ارادة الآلهة نفسها . وبينما كان وحده في وسط الغابة وفي إبان نشاطه هاجمه خنزير بريّ ضخم وجرحه في فخذه جرحاً خطيراً ، وأسرعت «فينوس» فرأت الاله الشاب جثة هامدة ، فمددته على سرير - على سرير من الخس - وضمدت جراحه ، وسكبت العطور على الدم المتدفق بغزارة . ومن هذا الدم المخلوط بالطيوب تولدت زهرة : شقيقة النعمان الواهية كالنسمة - وانتشر الدم بصورة واسعة على الأرض حتى وادي النهر القريب - هذا النهر يسمى نهر «أدونيس» - وتحولت مياهه فجأة إلى دم قاني .

ونلاحظ أن بين الروائيتين - رواية «بانيايزيس» ورواية «أوفيد» صفات مشتركة في أصل الإله وولادته وحبه وموته . ولاشك أن «فينوس» بكته طويلاً - وكان يجود بروحه - وحاولت أن تحييه ولكن عبثاً . وعندما مات لم تقم بأية حركة ولم تتخذ أي شيء لتعيده إلى الحياة . فكأنها شعرت أنها عاجزة أمام هذا الحدث الرهيب .

وهكذا في العصر القديم - أو في العصور القديمة - تمثل لنا أسطورة «أدونيس» أغنية «رعوية» مفاجئة أو قصة ذهب بطلاها^(١١٥) ضحية حب تحطم سريعاً . ومن دراسة الآثار التي تعود إلى تلك الأزمنة - نقوش على اللوحات أو

(١١٤) القسم الأعلى من السماء يسكنه الآلهة - «المغرب» .

(١١٥) أي بعل وأدونيس . «المغرب» .

الجدران وتمثال مع نقوش ورسوم ولاسيما رسوم «يومبثي»^(١١٦) - نرى أنفسنا مقودين إلى نفس الاستنتاج . والغريب أن هذه المشاهد المختلفة التي تمثل ولادة «أدونيس» وصيده وموته - ولاسيما موته - لم تذكر حتى ولا واحد منها عودته إلى الحياة أو خارجاً من الجحيم (باطن الأرض) ومنتصراً على الموت .

ولدينا قصيدة عنوانها: أغنية في رثاء «أدونيس»^(١١٧) وهي من نظم شاعر يدعى «بيون» Bion من إزمير . - وإزمير مدينة غير بعيدة من «هاليكارناس» موطن «بانيازيس» . والقصيدة مرثاة طويلة عاطفية شاعرية وتبدأ بهذه العبارة: «لقد مات ، مات أدونيس الجميل» . وهذه الكلمات تتردد بعد كل مقطع ، فكأنها اللازمة . وهي (القصيدة) من البحر الاسكندري^(١١٨) ، أنيقة قليلة التكلف ، فنقرأ مثلاً أبياتاً جميلة مثل هذه: «جرح عميق واسع فَتَحَ جانِب «أدونيس» ولكن في قلب «كبيريس فينوس» جرح أعمق وأوسع» ونرى «كبيريس» تهيم بين الجبال وفي بطون الأودية مولولة معولة من الألم وصارخة: «لماذا ذهب إلى الصيد؟ إنك جميل فلماذا تسعى وراء الحيوانات المتوحشة؟»

وربما نظم «بيون» تنمة لمرثاته - في قصيدة أخرى - تتعلق بعودة «أدونيس» ولكنها لم تصلنا - إذا كانت موجودة - وإذا ماتتبعنا أصول ماحللناه يبدو لنا - في نهاية العصر القديم - أن «أدونيس» يمثل الإله المضطهد الميت المقتول . ولكن لاشيء يشير إلى أنه سيعود ثانية إلى الحياة .

ومع ذلك - في الشرق القديم وفي العصور الغارقة في القدم - وعلى هذا يجب أن نعتد - نرى ان موت الاله الشاب كان من جرّاء حادثة مفاجئة ، لامهرب منها، وكانت سبباً لانسكاب دموع صادقة، ليس من قبل البشر فحسب بل حتى من قبل الآلهة . والشيء الهامّ هنا هو العودة بعد الموت كما جرى لبعل . وكذلك نرى ان الخالدين (الآلهة) ينتظرون الموت كما ينتظره خدمهم (البشر) .

(١١٦) بومبثي مدينة رومانية صغيرة دفن فيها الامبراطور بومبيوس . وكانت مكاناً لطلاب اللذة من أغنياء الرومان - «المغرب» .

(١١٧) Epitoplios Adunido - «المؤلف» .

(١١٨) البحر الاسكندري عند الفرنسيين يشتمل على اثني عشر مخرجاً dauze syllables - «المغرب» .

على رأي «أوفيد» ولد أدونيس في قبرص وعلى رأيه أيضاً مات في لبنان .
والحقيقة أن جميع أحداثه وقعت في لبنان، وإذا كانوا يقولون - في عصر
أوغسطوس - بأن أباه كان ملك قبرص فهذا يعني أن التعبد له دخل باكراً
- بدون شك - إلى قلب هذه الجزيرة الكبيرة القريبة جداً من الشاطئء
السوري . واستقبل هذا الدخول بحماس شديد كما استقبل في كثير من نقاط
شواطئء البحر المتوسط . ولكن من لبنان خرجت هذه الأسطورة ، ومن جباله
وغاباته ومن وسطه أي من «بيبلوس»^(١١٩) المدينة الهامة تسربت إلى جميع حوض
البحر .

أدونيس في جبيل

أقيمت حفريات عظيمة في جبيل عام ١٩٢١ . وتتابعت الأعمال دون
انقطاع تقريباً حتى أواخر تلك الشهور ، فظهر من الأبحاث الطويلة الصبورة
حدّث كبير الأهمية ، ذلك أنه منذ فجر التاريخ كانت لجبيل علاقات جد وثيقة
مع مصر . وهي ذات طابع اقتصادي ولاسيما الخشب . ففي مصر نخيل ولكن
خشبه اسفنجي لا يصلح للبناء ولا يصلح في النجارة . وبما أن غابات لبنان
ملأى بشجر الأرز والصنوبر والشوح وغيرها فكان تصدير الأخشاب يجري
بكميات كبيرة ولذا نشأت العلائق بين مصر وبيبلوس .

ولدى أول ضربات الفؤوس أظهرت الحفريات محراباً كان مزدهراً في
الزمن الذي شيّدت فيه الأهرامات الكبيرة أي في القرن الثامن والعشرين قبل
الميلاد . وقد استخرج من ذلك المحراب آنية من المرمز الأبيض ، أكثرها على
شكل قردة جالسة القرفصاء وتحمل على جانبيها أسماء مثل «خوفو»^(١٢٠)

(١١٩) اسم «بيبلوس» يوناني ومعناه ورقة البردي . وفي العهد القديم تسمّى جبيل وفي النصوص المسماة
«غويلو» أما الآن فهي جبيل تصغير جبيل في العربية . قاد حفريات «بيبلوس» بييرمونتل -
tel عام ١٩٢١ إلى ١٩٢٤ ثم قادها بعده موريس دونو - «المؤلف» .
(١٢٠) امبراطور مصري من الدولة الرابعة أقام أكبر هرم في مصر . «المعرب» .

و« ميسيرنوس »^(١٢١) وهي تشمل على قرابين (تقدمات) رفعها الفراعنة الأقوياء من الدولة الرابعة لإله بيبيلوس إما ليعربوا عن شكرهم وامتنانهم وإما ليطلبوا منه إحساناً جديداً . ووجدت أيضاً سلسلة كبيرة من الأدوات الصغيرة مختلطة بالرذم . وهي كلها من العاج ارتفاع الواحدة ٤ سم وهي من تلك الرموز التي تكثر في مصر على مختلف العصور ، وكانوا يسمونها « زِد » Zed وهي علامة « أوزيريس » أكبر إله شعبي في وادي النيل .

ولقد طال الجدل على معنى هذا الرمز وقيمته منذ بدء دراسة الآثار المصرية . فكان « شامبوليون » يرى أن تلك الرموز ليست إلا ضرباً من ضروب مقياس النيل . وذهب آخرون بأنها سرج يجلس عليه المثال أو الرسام عندما يشرع في العمل . وربما كانت مذبحاً مكوناً من أربع مناضد وضعت فوق بعضها البعض وربما كانت عموداً يحمل عتبات الباب الأربعة أو سلسلة من أربعة أعمدة وضعت صفاً واحداً ولا يرى منها إلا تيجانها المنضودة فوق بعضها . وقد اقترح البعض الآخر أن تُعتبر هذه الأدوات صورة تمثل الأقطار الأربعة التي يتألف منها الكون . إلى جانب هذه التفاسير العصرية المختلفة جداً يجب أن نضيف تفسيراً آخر هو : إن هذه الأدوات عبارة عن موضع يقدمه الكاهن المصري للزائر ليثبت أن « زِد » كان العمود الفقري لمذهب « أوزيريس » .

ودون أن نقف عند هذا الحل ، فإن دارسي الآثار المصرية يرون اليوم - ولكن ليس بالإجماع - بأن « زِد » يمثل جذع شجرة ، شجرة قد قطعت أغصانها وكما يقول الأشراف : منزوعة الجوانب . وإذا كان ذلك كذلك ، أليس من الغريب بأن يُتمثل إله بشكل شجرة في بلاد لا يوجد فيها غابات . وعلاوة على ذلك بشكل شجرة مقطوعة الأغصان .

ويقودنا هذا الأمر إلى القول بأن « زِد » يمثل صورة إله بيبيلوس وإن هذا

(١٢١) امبراطور مصري عاش في الجيل العاشر قبل حرب طروادة ، وبني الثالث من الأهرامات الكبيرة .
«المغرب» .

الرمز استعير من فينيقية . واستناداً على هذه النظرية نستطيع أن نعلل بعض النصوص المتعلقة بأوزيريس وبيبلوس معاً ، وهذا النص جاءنا من « بلوتارك »^(١٢٢) مؤلف كتاب : « حياة عظماء الرجال » وكان ذا ذهن منفتح لمعرفة مختلف الأشياء .

يروى « بلوتارك » : عندما قتل « تيفون » أو سيث Seth أخاه « أوزيريس » - « سيث » يمثل الظلمة أو الشر و« أوزيريس » يمثل النور والخير- وضع جسمه (جسم أوزيريس) في صندوق وألقي في البحر فتقاذفته الأمواج حتى وصل إلى الشاطيء السوري في فينيقية وبالأصح لفظه البحر على رمال بيبيلوس عند ساق شجرة من نوع « إيريقا » . فما كان من هذه الشجرة إلا أن جذبت الصندوق إليها فتجسدا معاً .

إذن فحادثة اسطورة « أوزيريس » - وهي من أفجع الأساطير بشهادة « بلوتارك » - جرت في « بيبيلوس » من جهة ، ومن جهة أخرى لقد ذكر « زد » ذلك الرمز الذي يمثل في مصر « أوزيريس » في عددٍ من النسخ البيبلوسية وفي أساس محراب يعود إلى الألف الثالثة ق. م . ومع ذلك فاننا لانستطيع أن نجزم - في هذا التقريب - بأن « أوزيريس » نشأ من « أدونيس » إذ ربما كان الهيكل الخاص بأوزيريس مكاناً يجتمع فيه المصريون الذين كانوا يأتون ليتسوقوا من « بيبيلوس » .

والحق يقال بأن مسألة العلاقة بين « أوزيريس » و« أدونيس » لجد وثيقة ولكنها لاتكفي لوضع حلول لها . ولكي نتوصل إلى تلك الحلول المقنعة يجب أن نطلع على الكثير الكثير عن هذين الالهين الشابين ؛ لأننا لانعرف « أوزيريس » إلا عن طريق بلوتارك ولانعرف « أدونيس » إلا من « أوفيد » و« بانيازيس » فهما وحدهما المرشدان .

لاشك أن اسم « اوزيريس » ورد كثيراً في النصوص المصرية ولكن

(١٢٢) بلوتارك مؤرخ ومؤلف في تهذيب الأخلاق ولد بين عام ٤٥ و ٥٠ ب. م . درس في أثينا وسافر إلى آسيا ومصر . مؤلفه : حياة عظماء الرجال في اليونان ورومة . «المغرب» .

ترجمتها غير قطعية لابل مشكوك بها . أما اسم « أدونيس » فقد ظهر لنا من حفريات « بيبلوس » التي دامت سبعة وعشرين عاماً والتي قدمت لنا مؤشرات ثمينة . ولكنها لم تقدم لنا شيئاً يذكر عن هذه الشخصية ، لافي الآثار الممثلة ولا في الوثائق الأدبية ، بل أبرزت (الحفريات) بعض التماثيل المتور أكثرها والتي تمثل إلهات أو إلهة واحدة ذات صفات موحدة - وربما أخذ رسمها على أشكال مختلفة - . ولانستطيع أن نقول جازمين انها تماثل « عشروت » رفيقة « أدونيس » أو « إيزيس » زوجة « أوزيريس » .

في مجال التاريخ القديم كثيراً ما يحدث - كما هو هنا - أن نقع على أحداث لها أهمية كبرى ، ولكننا لانعرف كيف نفسرها ولاسيما إذا ما اختلطت في أحداث أخرى لاقيمة لها . ومن هنا - لاشك - جاءت « ملاحظة » « ج . دي هامل » قال : « في بعض الأحيان تبدو لنا العصور القديمة مسطحة مثل صور الجدران ونحاول أن ندرك مظهرها ولكننا نقف حيارى ونقول « خداع نظر » . وفي الواقع ليس هناك حيرة ولاخداع نظر ، وذلك لأن معرفتنا عن الماضي جزئية ومحدودة ولانستطيع أن نكون على ثقة من أمرنا إلا إذا ما اطلعنا على جميع حفريات الشرق من أعلاها إلى أسفلها . وعند ذلك تبدو لنا الحقيقة عارية تامة » .

وهذا ما يتعلق « بيبلوس » . ومع أن تراها قد اكتشف بصورة واسعة وعميقة فإن قصة « أدونيس » و« عشروت » قد انفلتت من جميع البحوث . ولكننا لانشك - أمام شواهد كثيرة خلفتها لنا العصور القديمة التقليدية - بأن التعبد الحار لأدونيس كان يجري في المكان ، ليس في « بيبلوس » بل في « بيبلوس » المقدسة - كما يقولون - أي في نقطة تبعد يوماً واحداً من المدينة أي في قمة جبل ارتفاعه (١١٠٠) م وقرب نبع نهر « أدونيس » ، كما كان يسمى من قبل والذي يسمى الآن بنهر « أفقا » . اذ في « أفقا » مرق الحيوان المفترس الاله الشاب وفي « أفقا » دفته « فينوس » - « عشروت » .

لقد وصف كثير من المسافرين المعاصرين نبع « أفقا » وكتب عنه

« إزنيست رينان »^(١٢٣) قال : « أفقا » أجمل مكان في العالم . النهر يتدفق من شلال إلى شلال حتى يغوص في أعماق مخيفة . لقد امتزجت عذوبة الماء بلطف الهواء بجمال النبات . كل شيء أخذ ساحر ؛ والطبيعة السكرى العجيبة تمتد على تلك المرتفعات وتجبر الانسان أن يستسلم لأحلامه في ذلك المجال الخيالي . أما بالنسبة لي فقد زرت « أفقا » منذ عشرين عاماً ، وكان ذلك في شهر آب ، في وقت كان الماء قليلاً وكان صخب الشلالات قد تحوّل إلى خريبر ضعيف لا يُسمع إلا من مكان قريب . فكان انطباعي الوحيد هو : هدوء تام وعزلة تامة .

وهنا أقيم - في القدم - هيكل « فينوس » « أفقا » أو « فينوس أفايسيت » ، ويدعى أيضاً محراب « عشروت » عشيقه أدونيس وحارسته . ولكن لم يبق منه حجر على حجر ، لقد خرب في عهد حرب صليبية قادها « جان كريس وستوم »^(١٢٤) المتشدد في حماسه . ومن الواجب أن نقول بأن فينيقية كانت - في القرن الرابع - متعلقة بعبادتها القديمة أكثر من جميع مقاطعات الشرق .

إذن في « بيلوس » ، في « أفقا » وعلى طول نهر « أدونيس » - الذي ليس كبقية أنهار فينيقية بل هو شلال جبلي لاغير - كانت تقام الاحتفالات التي تسمى في العهد اليوناني - الروماني « أدونيا » أو كما نقول « أدوني » وهي أعياد يشترك فيها لا سكان البلاد فحسب بل يأتي الحجاج من جميع الجهات ، يشاركون بعضهم البعض المخاوف والأمال والأفراح .

(١٢٣) عالم فرنسي وفيلسوف ومؤرخ (١٨٢٣ - ١٨٩٢) من مؤلفاته : « أصل النصرانية » . « المغرب » .

(١٢٤) يوحنا فم الذهب أحد آباء الكنيسة وبطريك القسطنطينية اشتهر بفصاحته وكان من تعصبه خراب الهيكل المذكور أعلاه . « المغرب » .

أعياد « أدونيس »

بعد أن قدمنا طبيعة الإله ، طبيعته المزدوجة حياً ومدفوناً ، لابد أن نقول : كان يُحتفل كل سنةٍ بعيدين يتميزان عن بعضهما ومنفصلين بشهور عديدة : الأول عيد موت أدونيس والثاني عيد عودته إلى الحياة . والحقيقة إذا ما دققنا يبدو أنه كان لا يوجد إلا عيد واحد يستغرق عدة أيام . والوثائق التي نستند عليها غير متفقة اطلاقاً على تاريخ هذين العيدين أو هذا العيد الوحيد . ولكننا نعرف أن الامبراطور « يوليانوس »^(١٢٥) عندما اجتاز آسية الصغرى على رأس جيش لمحاربة الفرس - وانتهت الحرب بموته - دخل انطاكية - وكان ذلك عام ٣٦٢ ب . م . - في نفس الوقت الذي كان يُحتفل فيها بعيد « أدونيس » . وكانت الزينات باهرة في كل مكان والصراخ عالياً . وكان ذلك في شهر تموز - وهو اسم أدونيس - حسب التقويم الشرقي .

أما في بيبيلوس فكان العيد يقع تماماً في أول الربيع . إذ في هذا الفصل يذوب الثلج فيتدفق ماء النهر الهابط من « أفقا » ، وبما أنه يجري في أرض حديدية يتحول الماء إلى الاحمرار فكأنه يتدفق من دم الإله الشاب . وفي اليونان كانت أعياد « أدونيس » تقام إبّان الصيف ، أيام القيظ ، ويجري هناك كما يجري في انطاكية أي احتفال جنائزي ، لأن العالم الاغريقي أو الهليني لا يعتقد بقيام الإله الشاب من بين الأموات .^(١٢٦)

(١٢٥) امبراطور روماني (٣٦١ - ٣٦٣) ونشأ نصرانياً ولكنه ارتد الى الوثنية . أصيب بجرح قاتل في حربه مع الملك سابور - الفارسي - ترك رسائل ونظريات فلسفية - «المعرب» .
(١٢٦) كانت فكرة «القيام من بين الأموات» غريبة وبعيدة عن عقلية الاغريقين كما كانت تخيف عقول الذين تنقفوا بالثقافة اليونانية . انظر «رينان» في كتابه تاريخ اسرائيل «المجلد الخامس وجه ٣٣٨ . وانظر أيضاً «دريوتون» وفانديه المجلد الثاني وجه ٧٨ . قالاً : «في شرح بلوتارك لا يوجد ذكر لتعطير «اوزيريس» ولا لقيامه من بين الأموات» . ولقد هذب المؤلف اليوناني القصة فبدت مبتذلة وغامضة . ولنتذكر ان القديس «بولس» عندما خطب في الأريواج (محرقة يونانية عليا) عن قيام المسيح استوقفه اليونانيون وهم يسخرون من الرسول قائلين : «سنستمع لك في المرة القادمة عن هذا الحدث» - «المؤلف» .

وفي فلسطين ، في القرن السادس للميلاد كانت نساء اورشليم (كما جاء في سفر حزقيال الاصحاح الثامن العبارة ١٤)^(١٢٧) - وكن قد اقتبسن عادات فينيقية ومعتقداتها - يتجمعن في يوم محدد من السنة أمام أحد أبواب^(١٢٨) الهيكل ليكين موت « أدونيس - تموز » . ليكين لا يُحيين عودة الإله . وبعد زمن طويل - ٨٠٠ سنة بعد - كان نساء بيت لحم^(١٢٩) - بشهادة القديس جيروم -^(١٣٠) يجتمعن كل سنة ويسكنن الدموع بغزارة فيشتركن بعملهن هذا في حداد الطبيعة وذلك عندما يبلغهن خبر اختفاء « أدونيس » .

وأخيراً في بيسلوس - فلنعد إلى ما نحن في صده - كانت أعياد « أدونيس » تدوم ثمانية أيام ، فالسبعة الأولى مكرسة لبقاء الإله الشاب ونذبه ودفنه . في خلال هذا الاسبوع كان السكان يغرسون في آنية من الفخار بذور الشمرة والقمح والحسّ وشقائق النعمان ؛ ويسمونها حدائق « أدونيس » ، هذه الحدائق الصغيرة جداً تنمو وتذبل في ثمانية أيام . وتعتبر رمزاً لقصر الحياة ولاسيما لقصر حياة أدونيس .

وإلى هذه العادة أشار نص غريب ذكره « فرانز كومون » ويتعلق بامرأتين نصرانيتين من اسبانيا هما القديستان « جوست » و« روفين » وجرى المشهد في مدينة « سبتة » في أواخر القرن الثالث ب . ع وذلك في اليوم الذي تمشي فيه أمينات الإلهة « سالامبو » - وهي عشروت قرطاجة حبيبة « أدونيس » ونادبته ويسميها كتاب اللاتين « فينوس لوجنس » - يكين ويندبن . وبما أن « جوست » و« روفين » كانتا تبيعان الأواني الفخارية المشوية - وكانت هذه مهمتهما - . فكان أتباع « سالامبو » يريدون أن يشتروا منها ليزرعوا حديقة « أدونيس » ولكن النصرانيتين (جوست وروفين) رفضتا بسخط أن تشتركا حتى ولا بصورة غير مباشرة بتقاليد الوثنيين ، وبلغ من تشددهما وحاسهما أن

(١٢٧) العبارة وردت هكذا : « إذأ هناك نسوة جالسات يكين عل تموز - «المغرب» .

(١٢٨) هو الباب الشمالي وكما رأينا من قبل بأن جبل بعل كان يُدعى «صافون» أي الشمال - «المؤلف» .

(١٢٩) بيت لحم مدينة فلسطينية ولد فيها النبي داود والمسيح - «المغرب» .

(١٣٠) من آباء الكنيسة ترجم التوراة إلى اللاتينية (حوالي ٣٣١) «المغرب» .

ألقنا أرضاً تمثال « سالامبو » ولكنها أُجبرتْنا على السير في الموكب وما أن انتهى الاحتفال حتى أخذنا وعذبنا حتى الموت .

هذا في العصور الحديثة ، أما في عصرنا فإننا نرى في بقاع متعددة من عالم البحر المتوسط احتفالات تشبه تماماً احتفالات العصور الغابرة . ولنأخذ مثلاً على ذلك : بروفانسا^(١٣١) وسردينيا . ففي الأولى يحتفل بالعيد إبان الشتاء في ٤ كانون أول أي في عيد القديسة « بارب »^(١٣٢) وفي الثانية كان يحدث العيد في انقلاب الشمس أي في ٢٤ حزيران . ويتغير هذا التاريخ وفقاً للبلاد الأخرى . وهذا ما يذكرنا بالفوارق الزمنية والمكانية في احتفالات أعياد « أدونيس » .

وفي اليوم الثامن وهو اليوم المنذور بكامله لقيام « أدونيس » من بين الأموات ، تقوم « بيلوس » وتقعده ، فكانت خادمت الإله يذهبن إلى الميناء ليستقبلن أداةً يحملها البحر كل سنة وبدقة - كما يبدو - هذه الأداة هي رأس ورقة بردي ألفتها نساء الاسكندرية إلى البحر قبل ثمانية أيام تلبية لارادة اخواتهن الفينقيات ، فكأنها خضوع من « أوزيريس » « لأدونيس » وكان رأس هذه الورقة رمزاً - في ضفاف النيل - للزوجة « إيزيس » وذلك بين رموز أخرى . ولدينا هنا برهان زيادة على ما مر من براهين تجمع بصورة وثيقة بين أدونيس وأوزيريس ؛ هذا الشاهد يثبت أيضاً - ومنذ عهد الأهرامات - ذلك النصب الوثني الغريب الذي يسمّى « زد » .

إذن ، وفقاً لإشارة أو رسالة ترد من مصر ، يعرف حجاج « بيلوس » وسكانها أن « أدونيس » عاد إلى عالم الأحياء . ولاشك أن المؤمنين به لم يروه قط بأم أعينهم ولن يروه ، ولكنهم كانوا يعتقدون واثقين أنه هنا ويشعرون أنه موجود في كل مكان ، ولذا كان الرجال والنساء - ولاسيما النساء - يذهبون

(١٣١) مقاطعة في جنوب فرنسا . «المغرب» .

(١٣٢) جزيرة قريبة من إيطاليا . «المغرب» .

(١٣٣) قديسة من نيكوميديا في أسية الصغرى ، عذراء شهيدة وهي حارسة رجال المدافع والاطفاء - «المغرب» .

ويحيثون مرددين دون أن يتعبوا هذه الكلمات البسيطة : « أدون » (يعني : المولى) قام من بين الأموات .

وفي مصر - أو على الأقل في الاسكندرية - كانت أعياد أدونيس تظل ثلاثة أيام . وكان الثالث منها هو يوم العودة . وكما قال «ثيوكريت»* وترجمه « ليكونت دي ليل »** شعراً بأن النساء كن يتبادلن أبياتاً مُجَنَّحةً من هذا النوع :

قرب البحر المُقفر ومنذ الفجر الأول

(كن) مسرورات يرقصن في حلقة

ويغنين الولد الإلهي الذي يخرج من « الأكبرين »^(١٣٤)

ثم يخاطبن « أفروديت » نفسها وينشدن أيضاً :

بعد اثني عشر شهراً عاد إليك « أدونيس » .

وبين ذراعيها الفانتين أعادته .

إليك الساعات ،^(١٣٥) إلى منازلك الثرية .

وقد مددته على سرير من ذهب .

وفي أعياد الإسكندرية كانوا يعلنون الرثاء النذب وكان هناك هتافات حماسية ومواكب صاخبة . وكانت الموسيقى تعزف لأن لها المرتبة الأولى .

وباختصار ، ففكرة القيام من الموت غير واردة إلا في « بيلوس » وفي الاسكندرية . في « بيلوس » أولاً لأنها هي أقدم محراب « لأدونيس » ومنها انتشرت عبادته في العالم . وفي الاسكندرية ثانياً ، إذ من عهد البطالسة كانت المذاهب والمعتقدات كلها تتجمع فيها فتشترك وتختلط . فهي مركز المراكز وفيها تقام الأعياد المشابهة تماماً لأعياد « بيلوس » .

* * *

(*) شاعر يوناني ، وهو زعيم القصاصد الرعوية ، اشتهر بحساسيته وخياله وملاحظاته الواقعية . فهو شاعر من الطراز الأول - «المعرب» .

(***) شاعر فرنسي اشتهر بقصاصده الوحشية واشعاره الميتولوجية - «المعرب» .

(١٣٤) نهر في الجحيم كما تقول الميتولوجيا ، ولا يستطيع اي انسان أن يعبره مرتين «المعرب» .

(١٣٥) الساعات : إلهات يونانية بنات جوبيتر وتاميس وهن تابعات لكبار الآلهة والابطال وهن ثلاثة : ثالو وكاربو وأوكسو . «المعرب» .

من جميع ما تقدم يبرز لنا بكل وضوح بأن « أدونيس » كان في الدرجة الأولى إله التجدد . فجعله الباهر وولادته في غابة يجبران على الإعجاب به وعلى عبادته ، ثم اختفائه وغيابه الطويل - أو يبدو طويلاً - يشير إلى أنه صورة للحياة نفسها - وطبعاً لا للحياة الأبدية المتجسدة « بعشروت » - حياة ما تعطيه الأرض من النتائج الضروري واللازم للكائنات .

إن الأرض التي أشرفت وتجملت في الربيع وغطتها النباتات التي ليست للزينة فحسب بل للغذاء لكل موجود . وبعد أن يجمع الناس تلك الهبات الثمينة ويكدسون المحاصيل يختفي الكوكب أو على الأقل تحف قوته فيبس النبات وتسقط الأوراق ولا بد من الانتظار شهوراً حتى تتجدد المعجزة . إذن ، ننتظر عودة « أدونيس » وننتظره بثقة وهو لا يخلف الميعاد . هذا وإن كان يخالط هذه الثقة قليل أو كثير من القلق . وإذا ما حدث تأخر عودته في سنة ما فهو لا يحدث بصورة مستمرة . وماذا يستطيع المخلصون أن يفعلوا إلا أن يتجمعوا ويشاركوا في أحزان الإله المهجورة - عشروت - ويساعدوها في اجتياز المحنة ويرجوها أن تطلب عودة من بيده مستقبل العالم .

يروي « التلمود » : « عندما كان آدم يرى الشمس تختفي في مساء اليوم الذي خلقت فيه يأخذ القلق بحلقه لاعتقاده أن المصباح الذي انطفأ لن يظهر بعد ذلك قط ، وأن النهار الرائع الذي قضاه لا غد له » لقد شعر الناس بهذا الخوف القاتل منذ العصور الأولى كما يشعر به من جاء بعدهم ومن بينهم الفينيقيون . إنه لقلق يطغى على النفوس . وإذا أردنا أن نجتمع قولنا في كلمتين نستطيع أن نقول : إن ميتولوجية « أدونيس » تتجاوب مع فكرة الخوف من المجاعة . لقد شكوا الناس منها قديماً وحديثاً لأنها تهدد وجودهم . ولذا كانت هذه الميتولوجية أكثر شيوعاً وانتشاراً من غيرها عبر الكثير من القرون والكثير من آلاف السنين ؛ لأنها حيوية جداً .

وهكذا في كل عودة من عودات « أدونيس » كان الإنسان يؤمن لأسرته ما يقوم بأودها سنة فسنة . وهنا سؤال يطرح نفسه : هل كان الفينيقيون يعرفون

هذا ؟ لقد كانوا يعتمدون على مولاهم ليظهر لهم نهراً جديداً ويعود بشخصه إلى الوجود ، لأن الفضل يعود إليه في كل شيء من مرافق الحياة . ولم يتردد بعض المؤلفين بالإجابة فنأخذ مثلاً « أ . موريت »^(١٣١) الذي كتب : « نحن واثقون من أن الفينيقيين كانوا يعرفون من أعياد « أدونيس » أمل تجديد الوجود للإنسان بعد الموت » . ومع ذلك فإن « موريت » هذا كان يعترف بأن الفينيقيين لم يُعربوا عن هذا الأمل إذ لا يوجد أي نص يدل على « جوهر هذا السر » .

وبالحقيقة لانملك أي نص يرشد إلى هذه النظرية إلا نصوص رأس شمرا . ومن المؤكد أن قصائد أوغاريت - كما نعرفها - لا تشتمل على أي ذكر لاعتقادات من هذا النوع . ولعل أفق الشعراء الكنعانيين كان محدوداً مثل أرضهم وزمنهم . وإذا كان في مصر قد وعد « أوزيريس » بالحياة الثانية لكل عادلٍ وتقي فإن في فينيقية لا يوجد أي شيء يدل على ذلك . هذا وإن كنا قد قبلنا التقارب لا بل المشابهة بين الميتولوجيتين المصرية والفينيقية بالنسبة للحياة الثانية فإن هذه المشابهة مأخوذة من التعمق في دراسة الأشياء أو على الأقل هو شيء ظاهر وسطحي^(١٣٢) يدركه أي إنسان .

ويبدو - بعد كل حساب - أن للفينيقيين في مسألة الحياة أفكاراً شبيهة بالأفكار البابلية التي ظهرت لنا دون إبهام في قصيدة « جلجامش » لقد ظن ملك « أوروك » أنه يستطيع أن يفوز بالخلود ، وليس ظنه طمعاً لاحد له لأن الآلهة وهبت الخلود لجدده ولأنه هو ثلثا إله . وعندما دنا من هدفه واعتقد أنه نجح جاءت ربة الغابة « سابيتو » وانتصبت أمامه لتذكره بحقيقة حاله ولتنتزع من رأسه كل أملٍ في نيئه الثلث الذي ينقصه .

(١٣٦) في كتابه : تاريخ الشرق القديم وجه ٦٢١ . « المؤلف » .

(١٣٧) ان التقارب الذي أقيم من قبل بين « آتون » إله المصريين (الذي قام مقام « راع » خمسة عشر عاماً وذلك طيلة حكم « أمينوفيس الرابع » وبين أدونيس الفينيقي لا قيمة له . ليس في أن لا اشتراك بين الاسمين فحسب بل لأن أدونيس بطل مأساة ، وآتون لاتاريخ له ولا أسطورة حتى ولا شكلاً إنسانياً ؛ بل هو عبارة عن قرص ، قرص شمسي يشع بالأنوار التي تنشر بأيدي ميسوطة النعم على العالم وعلى الأسرة المالكة قبل كل شيء . تلك النعم التي ينتظرها الناس من كوكب النبار . « المؤلف » .

كان الفينيقيون في باديء أمرهم فلاحين نشيطين ثم أصبحوا مع الزمن تجاراً ماهرين وعمالاً صناعيين وبحارة لا يُغلبون . ولكنهم لم يرتفعوا عن همومهم المادية . فكانوا يعيشون كل يوم ليومه وكل سنة لسنة . ولا تخطيء قط بأنهم كانوا يعتقدون مثل جيرانهم بأن الشيخوخة السعيدة لا تكون إلا لمن خدم الآلهة بنشاط واستقامة ، فهي أعظم الثواب .

وإذا كان في نهاية الأزمنة القديمة أي في العصر الامبراطوري قد اتخذ أتباع أدونيس أو البعض منهم مفهوماً أسمى ، فلم يكن لأدونيس من فينيقية إلا الاسم . إذ أصبح مثل بقية آلهة الشرق يونانياً بالكلية .^(١٣٨)

وهنا يقف المؤلف ، فأقف . وأرى أن القارئ تلمس بأن لغته العربية التي هي أصل لكل اللغات السامية عريقة في القدم . وما انبثق عنها ليست إلا لهجات تكيفت مع الزمن وفي كل بيئة .

ماجد خير بك

(١٣٨) وبنفس الوقت نرى في وادي النيل أن الإله الشيخ «أوزيريس» يزول أمام إله آخر يدعى «سيرابيس» جاء من اتحاد المعتقدات المصرية بعقيدة الأسرار اليونانية . «المؤلف» .



بعل / يلوح بيده اليمنى بالفأس ويحمل باليسرى رمز الساعة
(نصب من رأس شمرا)



الإلهة عشتار



فتاة تحمل حديقة ادونيس



موت ادونيس، من بومبئي



كاهن يلبس كاوانيس



لوحة من صدف
تمثل جلجلمش



إيتلغا يحمله النسر

الفهرس

ص	* الموضوع
٥	* مقدمة الكتاب بقلم الأستاذ أحمد المضواحي
٩	* مقدمة المعرب
١١	* مقدمة المؤلف
١٧	* الأساطير البابلية - الأصول
٢٠	* خلق العالم
٢١	* الإنسان الأول
٢٢	* أسطورة أو انيس
٢٤	* ملوك ما قبل الطوفان
٢٦	* الطوفان
٢٨	* أسطورة أدايا
٣٠	* أسطورة إيتانا
٣١	* الإلهة عشتار
٣٤	* نزول عشتار إلى الجحيم
٣٦	* جلجامش
٤١	* جلجامش ومارد الأرز
٤٥	* جلجامش والثور السماوي
٤٧	* موت أنكيديو
٤٩	* جلجامش يفتش عن نبتة الحياة
٥٣	* الأفعى تسلب نبتة الحياة من جلجامش

٥٧	* الأساطير الكنعانية
٦١	* اكتشاف رأس شمرا
٦٣	* قصائد رأس شمرا
٦٤	* إيل أبو الآلهة
٦٦	* أسطورة الملك دانل
٦٧	* الملك قيريت في شبابه
٧٣	* انحطاط الملك قيريت
٧٩	* بعل وإله البحر
٨٦	* الأسطورة المصرية عن عشتارت وإله البحر
٨٨	* بعل وإله الموت
٨٩	* الآلهة عانات
٩٢	* فتح جبل الشبال
٩٣	* بيت بعل
٩٦	* إنتصار بعل
٩٧	* موت بعل
١٠٠	* عانات تنتقم لموت بعل
١٠١	* بعث بعل
١٠٥	* أدونيس
١٠٦	* أسطورة أدونيس
١١٠	* أدونيس في جبيل
١١٥	* أعياد أدونيس

هذا الكتاب

كما نعرف . إن كتب تاريخ العالم كثيرة اليوم وفي كل منها يحتل الشرق القديم أو الشرق التقليدي المكان الذي يخصه .

ولكن في هذا المجال - أكثر من غيره من المجالات - تكثر التعديلات المستمرة نظراً للاكتشافات العديدة . وقد حان الوقت لوضع كتاب عن الشرق القديم : ولايستطيع كاتب بمفرده أن يعالج هذا الموضوع رغم جدارته ووفرة طاقته إلا بمشاركة اختصاصيين معتبرين ولاسيما في كتابة تاريخ شعوب مختلفة كالحثيين والآشوريين وغيرهما .

في مؤلف مفهوم تتابع الفصول وفقاً لترتيب تاريخي منذ عصر السومريين حتى الفتح الروماني . ولكن مصاعب الترتيب العملي التي يصطدم بها الكاتب لتحقيق هذا المشروع شاقّة جداً كما وقع لنا . فعولنا أن نعتد على سلسلة من الدراسات المتعلقة بنقطة واحدة في التاريخ . فقدمت كل واحدة من هذه الدراسات الموجهة والمحددة حالة - في الأبحاث الحاضرة - ذات فائدة جلي . فالأحداث الناتجة من التنقيب جلبت لنا معرفة واسعة ولا سيما عن الذين اهتموا بأصول الحضارات .

وليس القصد من العنوان الذي توجنا به هذا الكتاب : أساطير بابل وكنعان «وضع كتاب مختصر عن الميتولوجيتين البابلية والكنعانية بل تقديم لمحة بسيطة عمّا هو مهم في تلك الميتولوجيتين المختلفتين عن بعضهما . وهذا مما يبيح لنا أن نقدم ذات يوم تفاصيل أكثر وبصورة مستقلة في هذه المجموعة .

شارل فيروللو